صفحات مطويّة من تاريخ النهضة الأدبية الحديثة

توفيق فكرت

شاعر الحرية والتجديد [١]

إحسان المدائمكي

كتب الشاعر علي وجدي بينغول BINGOL الرباعية التالية معبراً عن إحساس كل تركي وطني نحو توفيق فكرت : ـ

[فكرت] في أرضنا الحبيبة هو المثل الأعلىٰ
ذلك الملتهف للنور المعادي للظلام
الثوري حتى أعماق الروح
هو الذي أنتج لهذا الوطن أباه مصطفى كمال !

في عهد السلطان عبد الحميد الثاني المعروف بالاستبداد والجمود والتأخر ، والمسؤول المباشر عن سقوط الامبراطورية العثمانية التي طالت فترة احتضارها ، عاش في استانبول رجل ، يتفق جميع المختصين على أنه كان الرائد الروحي للثورة السياسية التي انتصرت على يدي كمال أتاتورك بعد انهيار الدولة العثمانية ، ذلك هو توفيق فكرت ، الشاعر الثوري المجدد وباعث الروح العصرية في جميع أنحاء تركيا في أوائل القرن العشرين . قضى توفيق فكرت أيامه كلها متطلعاً بلهفة وأمل إلى المستقبل البرّاق الذي يتمناه لبلاده دون أن تبدو في الأفق بارقةُ خير واحدة تطمئن قلبه الظاميء إلى الحرية والعدالة ، وشَقَّ طريق الكفاح الشائك بواسطة أشعاره الوطنية الملتهبة التي ذاع معظمها لا عن طريق النشر في الصحف ، وإنما بالتداول سراً من يدٍ إلى يد ، على الرغم من كل الجهود التي بذلتها دوائر الرقابة العثمانية للحدّ من إنتشارها بين الناس . لكنّ توفيق فكرت لم يتردد في مواصلة الكفاح لإيمانه بأبناء وطنه ، حتى في أشد حالات يأسه وتشاؤمه . وعلى يدي فكرت انتقل الشعر التركي من مرحلة التقليد والجمود والتكلف البلاغي السقيم ، إلى عهد جديد يقوم فيه الشاعر بدور الرائد الذي يرشد قومهُ إلى الآفاق الحلوة الجديدة ، فاتحاً بذلك أبواب عوالم غريبة لا عهد لهم بها بعدُ . توفيق فكرت هو أول شاعر في العهد العثماني يضع فنّه في خدمة قضية وطنية وإنسانية وإجتماعية ، مؤكداً بذلك أن الفنان يستطيع عن طريق إنتاجه الابداعي أن يؤدي دوراً بطولياً لا يقلّ عظمةً عن دور الجندي في المعركة والحرب ، يقول [فكرت] واصفاً مسيرته : ـ

في طريق الحق ستمضي وحيداً
ربما تهشم جناحك
لكنْ . . أبداً لن تحني رأسك

وتوفيق فكرت هو الذي شقَّ الطريق ومهّدهُ لناظم حكمت . الناقدون يجمعون على أن [ناظم] أكمل ما بدأ به [فكرت] فناظم هو امتداد فكرت ، غير أن [ناظم] كان أوسع آفاقاً وأعمق علماً ، ولأنه تأثر بفكرت في شبابه المبكر ، فقد عرف كيف يتجنب أخطاءه أيضاً . وأهم أخطاء [فكرت] أنه لم يستطع أن يدرك بأنّ (الفن) ما هو إلا نتاج فوقي للشروط الاجتماعية والاقتصادية ، وأنّهُ غير معزولٍ عنها إطلاقاً . وقد أدىٰ فشل (فكرت) في فهم هذه المسألة الى تحوله في أواخر حياته إلى إنسان يائس متشائم قد نفض يده تماماً من أسباب الفرح والسعادة ، في حين ظلّتْ شرارة الأمل تلتهب في صدر « ناظم » حتى النهاية .

---

[١] المراجع التركية للبحث

1- Türk Edebiyat, Tarihi.
Seyit Kemal Kara Ali Oglu- II Citt- Istanbul- 1982.
2- Serveti Fünun Donemi
Semsettin Kutlu - Istanbul 1981.
3- Tevfik Fikret
Atilla Özkirimli- Istanbul 1981.

من أدق ما وُصفتْ به شاعريةُ توفيق فكرت ، عباراتُ صديقه المقرب المفكر الشهير رضا توفيق[٢] :

[العبقري مثل زمّارة ضبط الآلات الموسيقية ، أصغرُ الأحداث تُحدث لدى العبقري اهتزازات حادة ، وكذلك كان توفيق فكرت ، إنه التعبير الأشد حدةً على اضطراب عصره وقسوة فجائعهِ] .

عصر توفيق فكرت

تصدَّعتْ أركان الامبراطورية العثمانية أثناء النصف الثاني من القرن التاسع عشر وواجهتْ الدمار الشامل في أوائل القرن العشرين . عند مولد توفيق فكرت سنة ١٨٦٧ كان المتربع على عرش البلاد : السلطان عبد العزيز الذي تصاعدت في عهده دعوات الانفصال والاستقلال في الأراضي الواقعة تحت حكمه . فقد تفجرت الثورة في الجبل الأسود ، وتوحدتْ رومانيا ، ونصب [كارل] أميراً عليها ، وهُزم الجيش العثماني في كلٍ من بلغاريا وصربيا . وفي مصر قرَّ رأي اسماعيل باشا أن يُلقب نفسه بالخديوي ويحكم البلاد المصرية حكم ملك ، يرث بعده العرش ولي عهده توفيق باشا . ولما بالغ اسماعيل باشا في الإنفاق على مظاهر التمدن واستنفد أموال الخزينة العامة ، تفجرت ثورة عرابي باشا فتدخلت الدول الغربية وعُزل اسماعيل باشا ، وعهد الحكمُ إلى ولي عهده توفيق باشا سنة ١٨٧٩ ، ومن هذه اللحظة صار للانجليز اليد العليا في إدارة شؤون مصر .

حكم عبد العزيز حكماً كيفياً ، السراي الذي كان يضمّ أكثر من خمسة آلاف شخص من أفراد العائلة العثمانية وحاشيتها اعتاد أن يستنفد من دخل الدولة خمسها تماماً ، فلا غرابة أن تتعالى أصوات المعارضة في كل مكان ، وخصوصاً بين أوساط المثقفين الذين شكلوا في سنة ١٨٦٥ أول جمعية سرّية معارِضة باسم [العثمانيون الجدد] أو [جون ترك لر] وهي جمعية شبيهة بمنظمة الكاربوناري الثورية الايطالية ، وبغيرها من المنظمات الاوروبية التي ظهرتْ في تلك الحقبة الزمنية . برز من أعضاء (جون تُرك لَرْ) الأدباء المشهورون : نامق كمال ، وضياء باشا ، وأبو الضياء توفيق ، وسعد الله باشا ، وانضمَّ إلى الجمعية مصطفى فاضل باشا آملاً أنْ يستطيع بواسطة نفوذها ، إستعادة حقّه في حكم مصر ، بعد أن أعلن أخوه إسماعيل باشا ولاية العهد لتوفيق باشا . في أول الأمر كان جماعة [جون ترك لر] مجرد تشكيل أدبي ، ظاهرياً ، لكنهم فيما بعدُ تحولوا إلى قوة سياسية سيكون لها شأن كبير في إدارة شؤون الدولة .

في البداية أصدر العثمانيون الجدد صحفهم خارج الأراضي التركية ثم انتقلوا إلى استانبول حيث تكاثرت جرائدهم تدريجياً ، ومنها : [حريت] و[تصوير أفكار] و[المخبر] و[عِبرت] ، هذه الصحف رفعت شعارات الحرية والديمقراطية والإخاء ، وطالبت الحكومة العثمانية بمواكبة مدنية العصر الحديث ، والاستفادة من مكاسب الحضارة الغربية فاجتذبت بسرعة حماس المتنورين . واستقطبتْ إهتمامهم ، مما أثار مخاوف السلطان عبد العزيز فبدأ بملاحقة أعضاء الجمعية الذين اضطروا إلى اللجوء إلى الدول الأوروبية كفرنسا وبريطانيا ، حيث انهمكوا في إصدار جرائدهم يرسلونها خفيةً إلى أرجاء الامبراطورية العثمانية لتحريض الناس ضدّ السلطان الجائر .

حاول عبد العزيز اجتذاب قلوب الناس فعيَّن المصلح مدحت باشا ، والياً على بغداد سنة ١٨٦٨ . ومدحت باشا هو أحد الزعماء السياسيين المتنورين وقد حاول مخلصاً إنقاذ الامبراطورية العثمانية قبل فوات الأوان ، من أهم أعماله مساهمتُه في إعداد القانون الأساسي الذي أعلن سنة ١٨٧٦ . وفي ولاية بغداد قام باصلاحاته الشهيرة ، لكنَّ حُسَّاده نجحوا في تغيير قلب السلطان عبد العزيز عليه ، فعزلهُ واستدعاه إلى استانبول .

ولما أحسَّ عبد العزيز باشتداد المعارضة ضده ، في كل أنحاء دولته ، أصدر قوانين جديدة تُضَيِّق على الصحافة ، وبموجبها أُغلقت جريدة [عبرت] الصادرة في استانبول ، وقُبض على محرريها ، ونُفي الكُتّاب : مدحت افندي ، وأبو الضياء توفيق ، ونامق كمال إلى مختلف الولايات العثمانية ، خارج استانبول . وزادت الأوضاع سوءاً ، حين خرج الطلاب

---

[٢] رضا توفيق ١٨٦٨ - ١٩٤٩ : كاتب وشاعر ومفكر تركي ، أكمل كلية الطب في استانبول . عمل في الميدان السياسي وشارك في إعداد دستور ١٩٠٨ . أصبح وزيراً فترةً من الزمن ، درّس الفلسفة والادب لطلاب دار الفنون أي [جامعة استانبول] واتخذ من كمال أتاتورك وحرب التحرير موقفاً عدائياً . وعند انتصار ثورة أتاتورك أُدخل اسم « رضا توفيق » في القائمة السوداء مع ١٥٠ شخصية تركية . فاضطر إلى مغادرة وطنه . وبعد أن ساحَ في عدة بلدان ، استقرَّ في الأردن . عاد إلى استانبول سنة ١٩٤٣ حيث قضى أعوامه الاخيرات في نشر مذكراته مع بعض المقالات الأدبية . توفي سنة ١٩٤٣ . كان يحسن عدة لغات منها العربية والفارسية والفرنسية والانجليزية واللاتينية الخ . وهو من أعضاء جمعية الاتحاد والترقي .

في مظاهرات صاخبة ضدّ الحكومة . ولم تهدأ الحال إلا بتنازل السلطان عبد العزيز عن عرشه . وحلَّ محلهُ سنة ١٨٧٦ السلطان مراد الخامس . لكنَّ إمارات الاختلال العقليّ التي بدتْ عليه ، أدتْ إلى خلعه في السنة ذاتها . فارتقى عرش الدولة السلطان عبد الحميد الثاني الذي سيبقى في الحكم ثلاثاً وثلاثين سنة أي حتى عام ١٩٠٩ .

افتُتِح عهد عبد الحميد بتزايد حدّة الاضطرابات في أغلب الولايات العثمانية ، فاضطر إلى الموافقة على مقترحين تقدمت بريطانيا بأولهما ، ويقضي بعقد مؤتمر في استانبول من أجل التوصل إلى حَلٍّ للمسألة الشرقية ، وتقدمت روسيا بالمقترح الثاني وهو ضرورة التفاهم مع ثوار صربيا . ولكي يظهر نواياه الطيبة أصدر عبد الحميد قراراً بانتخاب نواب للمجلس ، ثم افتتح بنفسه [مجلس المبعوثان] لكنّ المجلس أعلن رفضَهُ للمقترحات الروسية ، وتوترتْ العلاقات بين الدولتين ، فأعلن عبد الحميد الحرب على روسيا ، وكانت تلك من أكبر هفواته . فالجيش العثماني لم يكن على استعداد للدخول في مثل هذه المغامرة ، وسرعان ما اقتربت الجيوش الروسية من حدود استانبول ، وأُسقط في يد عبد الحميد فبادر إلى توجيه نداء إلى قيصر روسيا ملتمساً الصلح . ثم أصدر فرماناً بإغلاق (مجلس المبعوثان) مدّعياً بأنَّ أعضاء المجلس هم الذين أرادوا تلك الحرب . بعد شهر واحد وُقّعتْ المعاهدة بين الطرفين ، وبمقتضاها تمَّ استقلال صربيا ورومانيا والجبل الأسود ، ومُنحتْ البوسنة والهرسك حكماً ذاتياً ، وضُمَّتْ ارمينيا وباطوم وقارص إلى الأراضي الروسية دون قيد أو شرط. وبذلك انسلختْ معظم مستعمرات الدولة العثمانية دون أن يستطيع السلطان المغلوب على أمره تحريك ساكن . وكان أشدّ ما يثير حنق [الرعايا] أنَّ عبد الحميد كان كلما تمادى في تخاذله أمام الدول الاوروبية ، ازداد تجبراً وطغياناً تجاه أبناء المِلّة في الداخل ! وقد شَجّع ذلك جماعة العثمانيين الجدد على المضيّ قدماً في حملاتهم الداعية إلى إسقاط عبد الحميد .

في سنة ١٨٨٩ تشكلتْ جمعيةُ « الاتحاد والترقي » سِرّاً ، وكان أغلبُ أعضائها يقيمون في باريس ، شأنهم شأن أعضاء جماعة « العثمانيين الجدد » . وهكذا تمّ اتحاد الجماعتين تحت اسم الاتحاد والترقي ، واعتقد الجميع أنَّ إسقاط عبد الحميد هو بداية الخلاص للامبراطورية العثمانية ، وعُقد لهم أول مؤتمر سنة ١٩٠٢ في باريس . واشتد ساعد الجمعية سنة ١٩٠٦ حين انتقل مركزها إلى سالونيك الواقعة على بحر ايجة ، مقابل الأناضول ، إذ سَهُلَ على أعضائها نقل مبادئهم إلى شباب الضباط الأتراك ، إضافة إلى تأييد تُجّار سالونيك لهم ، وأخيراً استطاع الاتحاديون اجتذاب ملّاك الأراضي المسلمين مما شكّلَ خسارة كبيرة للسلطان .

قلقَ عبد الحميد لهذه الأنباء فشكل هيئة تحقيقية وتمَّ القبض على طائفة من الاتحاديين ، فكان الجواب السريع وقوع حوادث اغتيالات ضد رجال الدولة الموالين للسلطة . في هذا المقام لا بدَّ من الإشارة إلى صلات الود والصداقة التي كانت تجمع بعض الاتحاديين بموظفي القنصليات والسفارات الاوروبية مما أوقع السلطان في رعب حقيقي ، خاصةً بعد وقوع تمرد في إحدى وحدات الجيش ، وتأييد الجماهير الشعبية لتلك الحركة .

كان لا بدَّ لعبد الحميد أن يتحرك قبل فوات الأوان ، ففي ٢٤ تموز ١٩٠٨ تمَّ إعلان (المشروطية الثانية) ، أي الدستور الذي طال انتظار الناس له . ووضع القانون موضع التنفيذ .

هنا لا بدَّ من التوقف قليلاً للتحدث عن التيارات الفكرية التي سادت البلاد العثمانية في تلك الفترة . ويمكن تلخيصها في ثلاثة إتجاهات رئيسة : ـ

١ ـ نزعة التفرنج أي التوجه نحو الحضارة الغربية الحديثة .

٢ ـ النزعة الإسلامية أي العودة إلى أصول الإسلام .

٣ ـ نزعة التتريك أي تقوية المشاعر القومية التركية على حساب الشعوب الاسلامية الداخلة في جسم الدولة العثمانية .

يلاحظ أن شعار [الطورانية] أو التتريك ، الذي ارتفع في عهد عبد الحميد ، عوضاً عن الشعار الملغى أي [إتحاد الملّة الإسلامية] لم يكنْ إلا مسعىً جديداً صادراً عن أصحاب المصالح الكبرى في الدولة العثمانية من أجل المحافظة عليها بكل ثمن . ثم إن شعار [الطورانية] الذي يبدو في ظاهره معادياً للمصالح الروسية ، كان في واقع الحال مفيداً وملائماً للمصالح الألمانية ، كذلك فإن شعار [إتحاد الملة الإسلامية] الذي هو في ظاهره موجة ضدَّ الامبريالية البريطانية ، كان ذا فائدة للمصالح الألمانية ، لأنَّ معاداة الانجليز تعني بالضرورة : الاستعانة بالألمان ! ومما أثار الانتباه في ذلك الوقت أنّ مجلة [الإسلام] كانت تصدر تحت إشراف وزير المعارف الألماني نفسه !! وأخيراً فلا يجوز لنا أن ننسى بأنَّ الفكرة الطورانية هي في الأساس من مبتدعات علماء الفيلولوجي والتاريخ الألمان ، أيضاً !

بحسابات عبد الحميد الثاني ، كان من فوائد الدستور أنه سيحدُّ من قوة الاتحاد والترقي ، لكنَّ الذي وقع هو الضدُ تماماً . فلقد أدرك المتنورون الذين أعدوا الدستور أنّ السلطان سيحاول التملص من القيود الدستورية ، ولذا أعدوا للأمر عدّتهُ ، والنتيجة أنّ سلطات عبد الحميد هي التي حُدّدتْ ! من ناحية ثانية ، رفع الدستور الرقابة المشددة على الطباعة والنشر وتنفس الصحفيون الصعداء ، واستعد الجميع للعمل من جديد بحيوية شديدة . وصدر العفو عن الكُتّاب والشعراء المحجوزين والمنفيين وعادوا تباعاً إلى الوطن .

تمّ تعيين كامل باشا ، المعروف بولائه لبريطانيا ، رئيساً للوزراء مما زاد في قوة الاتحاديين ، في حين ضعفَ موقف عبد الحميد بإعلان استقلال بلغاريا ، وانضمام جزيرة كريت إلى اليونان . ولم يقف الأمر عند هذا ، فإنَّ رفع شعارات الحرية والديمقراطية التي نادى بها الاتحاديون قد أدى إلى ظهور التناقض بين مصالح مختلف الفئات في أنحاء البلاد ، وكانت النتيجة إعلان عمال استانبول وبعدهم عمال الأناضول ، الإضراب العام .

أصبح السلطان عبد الحميد في حَيْرة من أمره . وأخيراً وجدَ الحلّ في نقض تعهداته الدستورية بالحفاظ على الديمقراطية في الحكم !! وهكذا فوجيء المضربون عن العمل ، بتوجيه النار إلى صدورهم ، وبذلك أثبتتْ الحكومة عدم مصداقيتها في تنفيذ الدستور . في هذا المقام لا بدَّ لنا من توضيح نقطة ذات صلة بجماعة الاتحاد والترقي ؛ فالمراجع التركية تؤكد بما لا يقبل الشك بأنَّ أعضاء هذه المؤسسة كانوا يتحدّرون في غالبيتهم من آباء أثرياء ذوي مصالح مالية وتجارية كبرى ، أو من البيروقراطيين الكبار المرتبطين اقتصادياً برجال الأعمال الأوروبيين ، وعلى هذا فإنَّ الاتحاديين لا يمكن أن يمثلوا مصالح الجماهير الشعبية الواسعة . وكان ذلك هو المسؤول عن الكوارث والمحن التي ستحلُّ بتلك الجماهير حال تسلُّم الاتحاديين للسلطة ، بعد خلع السلطان عبد الحميد سنة ١٩٠٩ ، وارتقاء السلطان محمد رشاد للعرش .

ـ حكومة الاتحاد والترقي ـ

اعتقد الاتحاديون أنّ إنقاذ الامبراطورية العثمانية لا يتمّ إلا بالاعتماد الكامل على الامبريالية العالمية ، ولم يخطر لهم أن يحسبوا حساباً للمستقبل المظلم الذي ينتظر الشعوب العثمانية لو استمرَّ استثمار الاوروبيين لموارد البلاد ، دون أية رقابة أو شروط . وهكذا سارع الاتحاديون إلى توقيع شتى الاتفاقات الاقتصادية والسياسية مع الدول والشركات الاوروبية دون أي تخطيط أو دراسة .

قام (مجلس المبعوثان) الأول الذي حظي بتأييد الاتحاديين ، على مبدأ تغليب العنصر التركي في التمثيل داخل المجلس . كان عدد المبعوثين ٢٨٨ نائباً ، منهم ١٤٧ تركياً ، ويتوزع العدد الباقي وهو ١٤١ نائباً على بقية الكراسي . هذا يعني أن النواب غير الأتراك حتى لو اتفقوا على رأي واحد عند التصويت ، لما فازوا بالأغلبية ، فكيف وهم مقسمون بحسب قومياتهم على الشكل التالي : ـ

٦٠ نائباً من العرب ، ٢٧ من الأرناؤوط ، ٢٦ من اليونان ، ١٤ من الأرمن ، ١٠ من السلاف ، ٤ من اليهود ، ذلك كان (خليط) النواب في مجلس المبعوثان ، وهو ، كما نرى ، متضارب المصالح ، لا يمكن أن يتمَّ فيه أيُّ إجماع على أيٍ من القرارات المطروحة للتصويت .

كانت ألمانيا تشجع بشدة ظهور إتجاه تغليب العنصر التركي في مجلس المبعوثان ، وفي غيره من مؤسسات الدولة العثمانية . ففي عام ١٩١١ وجهت الحكومة الألمانية دعوةً إلى خمسين مثقفاً علمانياً جلّهم من جماعة الاتحاد والترقي لزيارة المانيا [من أجل توطيد العلاقات بين البلدين] ، وكان على رأس الوفد : الكاتب الاتحادي (حسين جاهد يالجين) عضو جماعة (ثروة الفنون) الأدبية (سابقاً) ، الذي أصدر مع [توفيق فكرت] مجلة (طنين) فترةً من الزمن . لكنَّ مغالاة حسين جاهد في تفضيل العنصر التركي على غيره من الشعوب ، أدى إلى تدمير الصداقة التي كانت تربط بين الكاتبين ، حتى تحول اسم [جاهد] على لسان توفيق فكرت إلى [فاسد] ، وتحول اسم جمعية الاتحاد والترقي عند [فكرت] إلى [إلى [جمعية الارتكاب والتدني] بعد خيبة آماله فيها عند تسلمها للسلطة ، وارتكابها للجرائم الشنيعة بحق الشعوب التي حكمتها .

وفي هذه المسألة بالذات يتجلى التناقض الأساسي بين مفاهيم الاتحاديين ومبادىء [فكرت] . (فكرت) أراد أن تأخذ بلاده من الحضارة الغربية عناصرها الانسانية في المساواة والديمقراطية والحرية للشعوب دون استثناء ، وأنْ تنبذ المفاهيم العنصرية الشريرة التي تبذر بذور الاستعلاء والبغضاء بين البشر . كان (فكرت) دائماً مع الديمقراطية ضدّ الفاشية ، ومع الحرية ضدّ العبودية ، ومع العلم ضد الجهالة فهو القائل : ـ

[الأرضُ وطني ، والنوع البشريُ قومي] .

ومن هـذه النقطة انفصـل طـريق [فكـرت] عن طـرق الاتحاديين ومؤيديهم .

لم يؤدِّ دستور ١٩٠٨ في المحصلة النهائية إلى قطف الثمار المنشـودة ، فالاتحـاديـون لم يكنْ في نيتهم تغيير المجتمـع العثماني من الجذور ، بل اكتفوا بأخذ قشور المدنية دون لبّها ، وبدلاً من إنشاء المصانع ، واستغـلال الأراضي البور ، ونشـر التعليم المجـاني ومكافحـة الأمية ، وإعـادة الحقوق الشـرعية للشعب بمختلف فئـاته ، وللنسـاء والـرجـال والأطفـال ، كي يُقضىٰ على الخلل في جسم الدولة ، فإنّ الاتحاديين انهمكوا في تحقيق هدف واحد لم يتذكروا غيره ، وهو تكـديس المال واحتكار الخيرات ونفخ جيوبهم أخيراً ! تاركين أبنـاء الشعوب العثمانية في أوجاعها وأوصـابها التي امتحنت بهـا منذ خمسـة قرون !

في سنـة ١٩٠٩ نجح الاتحـاديون في خلع عبـد الحميد ، ونصبوا محمد رشاد سلطاناً ، لكنَّ السلطة الفعلية اصبحتْ منذ ذلك الوقت بأيديهم ، فحكمـوا البلاد بيـدٍ حديـدية مـدة عشر سنوات أي حتى نهايـة الحرب العـالمية الأولى سنـة ١٩١٨ ، وخنقوا كلَّ صوتٍ للمعارضة ، كي يتهيأ لهم تنفيذ المهمة التي جاءوا من أجلها وهي باختصار ، بيع البلاد بكـل خبراتهـا إلى الامبريالية العالمية . لقد استخدموا في سبيـل تحقيق أهدافهم غير الشريفة أحطّ الأساليب ، فمع تظاهرهم بالتعصب للعنصر التركي ، لم يتورعوا عن تعيين اليونانيين والأرناؤوط واليهود في أجهزة القمع التي وجهوها ضدَّ الأهالي . أما شعار [الحرية] الذي ظلّوا يلوكونهُ بألسنتهم ، فلا شكّ أنهم أرادوا به حرية بيع الوطن وتدميره !

والحقيقة أن الهدف الحقيقي الذي سعتْ أوروبا إلى تحقيقه عن طـريق تشجيعها لـلاتحاديين على تسلُم السلطة ، تلّخص في تمزيق جثة [الـرجل المـريض] واقتسام إرثـهِ ، بعد رمي الجثة ذاتها في المزابل . أما الدستور فلم يربح منه العثمانيون جميعاً غير الدمار والهلاك والخراب . لقـد كان المثـل الأعلى لـلاعضاء العسكـريين في جمعية الاتحـاد والترقي هـو الحكم البروسي ، ولهذا وضعوا أنفسهم في خدمة الإدارة الألمـانيـة. فلا غرابة في أن تتسم سياسة الاتحاديين الخارجية بـالعدوانيـة التي لا مبرر لها . والنتيجة أن البلاد العثمانية عادت إلى الحكم الديكتاتوري ، بعد سقـوط عبد الحميـد ، ولكن بصورة أشـدّ قسوة وأكثر وحشية وفوضى مما كانت عليه في العهود السابقة ، [ونجح الاتحاديون في خطة الفساد التي نفذوهـا خلال عشـر سنوات ، فيما لم يقع مثله حتى بأيـدي العثمانيين على مـدى ستة قرون من حكمهم] .

في عهـد السلطان عبد العـزيز ثم السلطان عبـد الحميد ، حاول السياسي المتنور مدحت باشا إنقاذ السفينة العثمانية قبل غرقها وبذل مجهودات عـظمى مشهورة من أجـل تحقيق ذلك الهدف . لكنَّ سلاطين العثمانيين كرهوا المكانـة العاليـة التي تبوأها هـذا الرجـل الأمين ، في قلوب الناس ، ولعلهم كـانوا واثقين بقـرب أفـول نجم دولتهم على أيـدي زعمـاء يحبهم الشعب ، ومَنْ غيـر مدحت بـاشـا أهـل لكسب قلوب النـاس وقتئذٍ ؟؟ هكذا نستطيع أن نتفهم دوافـع المكيدة الغـادرة التي دُبرتْ لمدحت باشا ، حين سرتْ بين الناس في عهد السلطان عبد الحميد إشاعة مفادها أنَّ السلطان المخلوع عبد العزيز لم يمت ميتة طبيعية ، بحسب ما ورد في بيان السراي ، وإنما مات منتحـراً وربما مقتـولاً . وبـدلاً من تشكيـل هيئـة للتحقيق في الحادث لإثبات براءة عبد الحميد نفسه من دم سلفـه السلطان عبد العزيز ، أسرع عبد الحميد إلى تـوجيه تهمـة التآمـر على حياة السلطان السابق إلى مدحت باشا . وقبل أن يستفيق الناس من هول المفاجأة ، أصدر عبد الحميد فرماناً سلطانياً بمحاكمة مدحت باشا ، وأوعز بإجراء المحاكمة داخل قصره السلطاني ، وتمَّتْ الإدانة ، وحُكم على مدحت باشا بالإعدام . ولمـا بلغ سمع عبد الحميد تذمّر الناس ، ورفضهم تصديق إتهاماته ، أمر بإبعاد مدحت باشا إلى مدينة الطائف في الحجاز ، وهناك عَرف كيف يتخلّص منه ، سنة ١٨٨٣ « قيل إنه قُتل في السجن » .

إن هذه الحادثة الشنيعة [وأمثالها] يمكن أن تعطي تفسيراً للابتهاج الشديد الـذي عمَّ المجتمع العثمـاني عند ذيـوع خبر خلع عبد الحميد ؛ فلقـد كان النـاس يشعرون بـأنهم يعيشون كابوساً مرعباً ، ولم يستيقظوا منه إلا بسقوط الطاغية . ومع ذلك كله فهنـاك بين مؤرّخي تلك الفترة من يـرفضـون وصف عبـد الحميد بالـظلم والغدر الـخ مؤكدين بـأنَّ شخصيته ، وأعمـاله كلهـا ، تعرضت للتشـويه والكـذب ؛ فهو ضحيـة دعايـة ذكية عـرفتْ كيف تحوّلـه إلى وحش كاسـر ، ومجنون لا يُـرجى له شفـاء ، ومن ثم فالأولى بنـا ، في رأيهم ، التريّث في الحكم عليه كي لا نكون له ظالمين .

لكنَّ الـوثائق التـاريخية لهـا رأي آخر ، والـدفاع عن عبـد الحميد غير وارد . كلّ القضية تتلخص في أنّ حكومة الاتحاد والترقي التي خلعَتْه ، وحلَّتْ محلَّهُ في التسلط على النـاس ،

لم تكنْ بأفضل منه ، إنْ لم تكنَّ أشدَّ جبروتاً وأفظع قسوةً . ومن هنا وجدَ أنصارُ العثمانيين الجرأة على الدفاع عن عبد الحميد وأضرابه من سلاطين بني عثمان . والمسائل نسبية لا سيما في الحسابات السياسية .

ـ السيرة والشخصية ـ

اسمُه الأصلي محمد توفيق ، أما اسم [فكرت] فقد اتّخذهُ لنفسهِ فيما بعد ، حين بدأ يكتب الشعر وينشره .

ولد توفيق فكرت في محلة « آق سراي » باستانبول سنة ١٨٦٧ . أبوه حسين أفندي بن أحمد آغا ، كان من موظفي الدولة العثمانية المعروفين بالاستقامة والنزاهة : تدرّج في الوظائف حتى أصبح متصرفاً في عدة مدن عثمانية كان آخرها بلدة [حماه] السورية التي توفي فيها سنة ١٩٠٥ . تعرض حسين أفندي عدة مرات للنفي خارج استانبول بسبب صراحته في انتقاد الأوضاع الفاسدة في أحاديثه وفي مقالات اعتاد أن ينشرها في صحف استانبول بين الحين والحين .

أما والدة توفيق فكرت ، خديجة هانم ، فهي بنت [خسرو افندي] الرجل المسيحي اليوناني الأصل الذي دخل الإسلام طوعاً ، واستقرَّ في تركيا . فقدَ [فكرت] والدتهُ وهو ابن اثنتي عشرة سنة ، فتزوج والده للمرة الثانية ، بعد وفاة زوجته . ونشأ الصبي تحت رعاية زوجة أبيه ، وسيكون لهذه الفاجعة أثر إليم في نفسه ، [تؤكده أشعاره وأحاديثه] . في صباه الباكر عُرِف فكرت بحدّة الطباع وعنف الحركة . كانت أحبّ لعبةٍ إلى قلبه أن يحمل خشبة حادّة الطرف يجعل منها سيفاً وهمياً للمبارزة ، وكان ضحية سيفهِ دائماً ، أغطية الأسِرَّة ومراتبها لا تأخذهُ بها شفقة !

بعد أن أكمل [فكرت] دراسته الثانوية في مدرسة [غلاطة سراي] وحصل على وظيفة حسنة في وزارة الخارجية ، أثار دهشة الجميع بتقديمه الاستقالة بعد فترة وجيزة من دوامهِ ، ولما سئل عن الأسباب ، أجاب بأنَّ ضميرهُ لا يسمح له بأخذ أجور شهرية على عمل لا يقتضي جهداً . ثم إنه جمع المبالغ التي قبضها وأعادها إلى الخزينة ! بعد ذلك عُيِّنَ مدرساً للغة الفرنسية وللغة التركية في مدرستين باستانبول إحداهما (غالاطة سراي) . وكان قد أتقن الفرنسية أثناء دراسته في غالاطة سراي الثانوية ، التي كانت تحظى بنظام تعليمي عصري ، ويقوم بالتدريس فيها أساتذة فرنسيون وأميركيون ، ولا يعمل فيها من المدرسين الأتراك إلا مشاهير الكُتّاب والشعراء ، ومنهم [المعلم ناجي] والشاعر [رجائي زادة محمود اكرم] الذي سيكون له دور كبير في مسيرة [فكرت] الأدبية .

في مدرسة (غلاطة سراي) تعلّم (فكرت) تذوق الشعر ونظمه ، بتشجيع من أستاذه [اكرم] ، وفيها أيضاً أتقن فن الخطّ . وكذلك واظب على أخذ دروس خاصّة في الرسم ، على يد أحد أساتذته الفرنسيين . وطوال دراسته في المدرسة حاز فكرت على أعلى الدرجات في جميع دروسه فكان الأول دائماً . أما عن هيئته الخارجية فقد كان ولداً قوياً ، عريض الكتفين ، ومتين العضلات مما أعانه على ردع الطلبة الأكبر سناً من الاعتداء (بالضرب) على التلاميذ الصغار القادمين حديثاً إلى المدرسة ، فكان ذلك سبباً لرفع منزلته بين جميع زملائه .

في تلك المرحلة المبكرة اعتاد التلميذ (فكرت) أن يشغل ساعات فراغه ، مثل أغلب الموهوبين من تلاميذ ذلك العهد ، بقول الشعر في أغراض الغزل والخمريات والفخر وما إلى ذلك من الأغراض التقليدية ، لإثبات قابلياته الأدبية . وكان يحرص على نظم [النقائض] يعارض بها أشهر قصائد كبار الشعراء القدامى ، رغم نفوره الفطريّ من التقليد . وفي كل هذا كان واقعاً تحت تأثير أستاذه [المعلم ناجي] الشاعر المشهور يومئذٍ . وبهذا يكون (فكرت) قد افتتح مسيرته الأدبية بالتقليد ، متخذاً من الشعر الديواني[٣] مثالاً يحتذيه . ومع ذلك تجلتْ أصالة (فكرت) حتى في هذه الأشعار الأولى . في تلك الفترة كان [المعلم ناجي] محرراً للصفحة الأدبية في مجلة [تصوير أفكار] في استانبول ، وكان شغلهُ الشاغل إحياء التراث الأدبي للشعراء القدامى . كذلك وقع (فكرت) في هذا الدور تحت تأثير مُدّرسه الآخر [المعلم فيضي] الذي شجعهُ على النشر في جريدة [ترجمان حقيقت] التي كان يصدرها يومئذ الكاتب الصحفي والروائي الشهير أحمد مدحت افندي [الصحفي الذي رافق مدحت باشا إلى بغداد فأصدر فيها جريدة الزوراء] .

في سنة ١٨٨٦ نشر الشاعر رجائي زادة محمود أكرم ديوانه [ألحان الكدر] وشرح في مقدمته ، آراءه الخاصة في الأدب ، وتحدث عن التجديدات التي أدخلها في شعره ، منتقداً في الوقت ذاته أساليب الشعراء التقليديين ، أمثال المعلم ناجي وكان لهذه المقدمة صدى عميق في نفس توفيق فكرت ، إذ

---

[٣] **الشعر الديواني** لدى الاتراك يقابل عندنا الشعر التقليدي أو القديم ، الذي يقوم على العروض ، والقوالب الشعرية الايرانية أيضاً .

حَـرَّرتهَ من تـأثيرات أولئـك الشعراء . ومن الـطبيعي أنه ازداد حماساً لاتّباع خطىٰ أستاذه [اكرم] . ولمـا كان [عبـد الحق حامد] هو النجمة المتلألئة في سمـاء الشعر التـركي في تلك الفترة ، فمن الطبيعي أن يقتفي خـطاهُ أغلب الشعراء الشبـاب ومنهم توفيق فكرت . والخلاصة فإنَّ [فكرت] كان حينئذٍ في مرحلة البحث عن الهوية ، ولم يكن قد وجدَ نفسهُ بعدُ ، ذلك يفسر عدم ظهور قصائد هذه المرحلة ضمن مجموعته الشعرية الأولى التي نشـرت بعنـوان الـربـاب المحـطمـة [رُبـاب شيكستْ] .

في عام ١٨٨٩ تمَّ زواج (فكرت) من بنت خـاله [نـاظمة هانم] ، ثم وُلد له منها ابنهما الوحيد [خَلوق] الذي سيكون له موقع هامّ في شاعرية والده .

منـذ عـام ١٨٩١ صـار فكـرت ينشـر أشعـاره في مجلة [المـرصاد] التي يـديرهـا المعلم ناجي ، ويحـررها الشـاعر إسماعيل صفاء[٤] فثبتتْ أقدامهُ في دنيا الشعر ، وذاع اسمه في الأوسـاط الأدبية . وفي عـام ١٨٩٥ أصدرت الحكـومة قـراراً يقضي بتخفيض رواتب المـوظفين بنسبة ١٠٪ بسبب الضـائقة المالية المحيقة بالبلاد . كان [فكرت] في ذلك الحين مدرساً في ثانوية [غلاطـة سراي] ، فـاشتد سخـطه على هذا الاجـراء الكيفيّ ، ولم يتـردد في انتقاده علنـاً ، ثم قـدم استقـالتـه من وظيفته ، على عادته كلما شاء إعلان إحتجاجه ضـدّ الحكومـة العثمانية . ولما صدر الأمر بإغلاق مجلة المرصـاد عام ١٨٩٤ وتمَّ استجواب كل من مديرها المسؤول ورئيس تحريرها ، اتفق [فكرت] مع مجموعة من أصحـابه الأدبـاء على إصدار مجلة أدبية أسبوعية جديدة بعنوان [معلومات] . وظهرتْ في السنـة عينهـا ، واستمـر صـدورهـا ٤٨ أسبـوعـاً إلى أن وَصَلَهـا أمـرُ الإغلاق ! في هذا الباب لا بدَّ من الإشارة إلى أن امتياز مجلة (معلومات) مُنِحَ بعد ذلك إلى هيئة إدارية أخرى معاكسـة في إتجاهاتها السياسية والفكرية لتوفيق فكرت وجماعته ، فصدرتْ (معلومـات) بصيغة جـديدة ذات نـزعة سلفيـة تقليديـة تحت حمـايـة البـلاط . وفي سنـة ١٨٩٦ التفّ الأدبـاء المجـدّدون وبضمنهم توفيق فكرت حول مجلة جديـدة أطلقوا عليهـا اسم [ثروة فنون] تحت إدارة أديب اسمه أحمد إحسان .

انهمك (فكرت) في هذه المرحلة من حيـاته بـالتهام آثـار الأدباء الفرنسيين ودراسة دواوين شعرائهم المحدثين ، يقرؤها في لغتها الأصلية متفحصاً مسحوراً . ولما كان فكرت مشغوفاً بالرسم فإنهُ إتجه إلى التفكير في المسائل الجمالية ، ونشرت له الصحف دراسات في علم الجمال ، فضـلاً عن مقالاتـه حول الشعـر الفرنسي ، كـذلك نشـرتْ له المجـلات تـراجم كثيـرة لشعراء فرنسيين مع قصائدهم أمثال بودلير والفـريد دي مـوسيه ولامـارتين . وبدأ يعقـد المقارنـات بين أشعار هؤلاء وقصـائد قدماء الشعراء الأتراك .

ـ الشعر والحياة ـ

اصطبغتْ الأشعار التي أرسلهـا فكرت إلى مجلة المـرصاد للنشر ، بجوٍّ متفـائل بهيـج لا صلة له بمـا سيطبـع أشعاره في المستقبل من حزن وأسىً . كان شعر هذا العهد مقصوراً على مـواضيع الـطبيعة والحب ومشـاعر الشبـاب . على أن أسلوبه الأدبيّ بدأ يأخذ شكلاً واضحاً ذا خصوصية ، من هذا الـوقت فصـاعـداً وسـوف تبقى الألفـاظ والتـراكيب اللغـويـة التي استعملها وقتئذٍ ثابتةً لتبرز على حالهـا في قصائـد المستقبل ، وهذه كانت بدايةَ تكون الشخصية الذاتية . ويلاحظ أن فكرت شرع ينفض عن أشعاره كلَّ قوالب اللغة التقليديـة المتصنعة . وفي نثره أيضـاً استخـدم لغـة الكـلام اليـوميـة منصـرفـاً عن المحسنات البديعية التي كان الكتّاب العثمانيون مولعين بهـا ، وظهـرت بـواكيـر الثـورة على قـوالب العـروض ، في بعض أشعاره .

في سنة ١٨٩٦ اقترح الشاعر [أكرم] تكوين جبهة أدبية من أدباء الشباب ، تكـافح للتخلص من الأدب التقليـدي السلفي الذي كان السـراي يغذي نفـوذه ، ويرعى ممثليـه من الشعراء الجـامـدين . وفي الـوقت ذاتـه طلب [أكـرم] من (أحمـد إحسان] أن يسند رئـاسة تحـرير [ثـروة الفنون] إلى الشـاعر توفيق فكرت .

في هذه السنة أيضاً وقع اختيـار مدرسـة [روبرت كـوليج] على [توفيق فكرت] لتدريس اللغة التـركية لتـلاميذهـا براتب شهري قدرهُ خمسمائة قرش . وسيبقى فكرت في هذه المدرسة حتى نهاية حياته .

---

[٤] **إسماعيل صفاء** : ١٨٦٧ ـ ١٩٠١ : ولد في مكة أثناء عمل والده فيها كموظف عثماني . في استانبول وقف إسماعيل صفاء مع المعـارضة ضد حكم السلطان عبد الحميـد فنفاه إلى بلدة [سيفـاس] التي لم تلائم صحته ، وكان مصاباً بالسلّ ، فتوفي فيهـا . كان شـاعراً رقيقاً لطيف المعشر ، حاول التجديد ونجح في مهمته شيئاً ما . انضمَّ إلى جماعة [ثـروة فنون] . كـان [صفاء] من أصـدقاء الشـاعر جميـل صدقي الزهاوي . وللشاعر العراقي مراثٍ في صديقه العثماني .

لم تمنع وفاة المعلم ناجي سنة ١٨٩٣ من ظهور مَنْ يحلّ محلهُ في رفع راية أدب الصنعة والتقليد ، متمثلاً في كاتب صحفي ذي شخصية غامضة اسمه [بابا طاهر] ، وهو الذي أسندتْ إليه رئاسة تحرير مجلة (معلومات) بعد إنتزاعها من أيدي الأدباء المجددين ، لتصبح تحت إشراف بابا طاهر ، دعامة الأدب السلفي الميّت ، وعدوّة كلّ النزعات التجديدية في الأدب .

لكن أدباء التجديد التفوا حول مجلة [المكتب] التي بدأت بالصدور في تلك الفترة ، وكان هدفها الأساسي توسيع معلومات تلامذة المدارس عن طريق نشر الدراسات العلمية المبسطة . لكنّ المجلة تحولتْ منذ نهاية ١٨٩٥ إلى مجلة أدبية ثقافية تعنى بنشر المناقشات حول الثقافة الجديدة والثقافة المحتضرة القديمة ، وذلك بفضل جهود الأدباء الجدد المساهمين في تحريرها . وكان يرأس تحريرها الكتبي (غرابيت) .

حدث في ذلك الوقت أنَّ مجلة [المعلومات المصورة] نشرتْ قصيدةً أثارت ضجة في عالم الأدب ، وفتحتْ باباً للنقاش على صفحات المجلات والجرائد . دار النقاش حول مشكلة تخصّ القوافي وعيوبها ، فالشاعر نامق كمال لجأ إلى [الإكفاء][٥] في إحدى قصائده مستعملاً لفظتي (وطَنْ) و(كفَنْ) مما لا يتواءم مع أصوات اللغة التركية ، ذلك أن كلمة وطن تلفظ في التركية هكذا VATAN في حين تلفظ (كفَنْ) هكذا KEFEN اي أنَّ الصوت الذي يسبق نون (وطن) مخالف للصوت الذي يسبق نون « كفن » ، وهذا هو الذي اضطر نامق كمال إلى القبول بعيب الاكفاء . وكان الشاعر المجدد (رجائي زادة أكرم) قد نشر مقالاً يعارض فيه لجوء الشعراء الأتراك إلى عيوب القوافي كالاكفاء والسِناد والإيطاء الخ مطالباً الشعراء الأتراك بالتخلص من قواعد الشعر العربي والايراني ، لأنها غريبة عن أصوات اللغة التركية وتراكيبها . ثم ظهر في الصحف مقالٌ آخر لشاعر اسمه حسن عسّاف ، ضرب فيه مثلاً آخر على الإقواء في كلمتي (عبث) و(مقتبس) لأنّ التركي يلفظ الثاء سيناً فيصبح الروي في اللفظتين واحداً في حين أنهما في العربية حرفانِ مستقلان .

كانت حصيلة هذا الجدال ، اقتناع غالبية الكتاب والمتأدبين بضرورة إستناد الشاعر التركي إلى قواعد مشتقة من طبيعة اللغة التركية ، لا من أية لغة أخرى ، أي وجوب الاعتماد على قوانين تُستخلص من تراكيب اللغة التركية ، وأبنيتها الذاتية ، ونبذ قواعد اللغتين العربية والفارسية المختلفتين تماماً عن بعضهما البعض ، فضلاً عن إختلافهما عن اللغة التركية . لكنَّ المحافظين هبّوا يهاجمون بعنف حركة التجديد هذه وممثليها ، لا سيما جماعة (ثروة الفنون) باسم التقاليد والأخلاق والمقدسات ، وما إلى ذلك من أمور لا صلة لها في الواقع بموضوع الاختلاف الأساسي .

استقطبت مجلة « ثروة الفنون » التي يرأس تحريرها توفيق فكرت ، جميع الشعراء والكُتّاب الشباب تقريباً ، وكان في مقدمتهم : جناب شهاب الدين ، وخالد ضياء اوشاك ليغيل ، ومحمد رؤوف ، وحسين جاهد يالجين ، وأخوه حسين سعاد يالجين ، وسليمان نظيف أوزان صوي ، وأخوه فائق علي أوزان صوي ، وأحمد شعيب ، وحسين سيرت ، وجلال ساهر إلخ ، وهكذا احتلت المجلة موقعاً خطيراً في عالم الأدب وقتئذٍ ، وكانت تصدر كل يوم خميس ، فيتلقفها جميع المهتمين بالأدب والثقافة بلهفة شديدة ، مما زاد في حنق السلفيين ونقمتهم على محرري المجلة وكُتّابها ، ووصل بهم الأمر إلى تحريض السلطات عليهم للتخلص من منافستهم . ومن أولئك الأعداء ، الكاتب الروائي أحمد راسم ، والصحفي أحمد مدحت افندي الخ . وأصبحت مجلة [المعلومات المصورة] التي يُشرف عليها بابا طاهر ، مركز تجمع للمحافظين والسلفيين . فمن هو بابا طاهر هذا ؟

الحق أن الجميع كانوا على علم بالجهة التي كانت تقف وراءه ، وهي : السراي . أما عن ماضي هذا الشخص فقد ظلَّ مجهولاً . أما عن هيئته فقد كان رجلاً طويل القامة ، متين العضلات متألق العينين ، ظاهر الوسامة ، يضع على عينيه نظارات مذهبة الإطار ، وقد عُرف عنه الجهل والجسارة في وقت واحد ، ثراؤه وفير ، ويداه مبسوطتان وينفق على ملبسه بلا حساب ، وكان له عربته الخاصة . وفي ذلك الوقت كان الواجب الأول الملقى على بابا طاهر ، جمع المعلومات عن الشاعر [رجائي زادة محمود أكرم] وعلاقاته الخاصة لأنّ [أكرم] هو الذي تزعم الشعراء المجددين جميعاً .

من المجلات الأخرى التي وقفتْ ضدّ [ثروة الفنون] وحركتها : مجلة [خزينة الفنون] ثم مجلة [الجريدة

---

[٥] **الاكفاء** : شبيه بالإقواء وهما من عيوب القوافي في شعرنا العربي ويقصد بهما اختلاف تشكيل القوافي بالكسر والضم والفتح أو تبديل حروف القوافي حروفاً مشابهة في المخارج أو في التهجي ، كأنْ يأتي الشاعر بالعين مع الغين أو بالذال مع الطاء ، وهلّم جرّاً .

المصورة] و[مصور الفن والادب] وغيرها . كان أشدّ ما يثير انزعاج المحافظين ، اللغة الجديدة التي استخدمها شعراءُ التجديد ، وظهور التأثيرات الاوروبية عليها لا سيما تأثير الشعر الفرنسي . قالوا إن تلك التأثيرات ستفقد الشعر التركي أصالته ، متناسين تبعية الشعر التركي للشعر العربي والشعر الفارسي الكلاسيكيين . وعلتْ صيحات السلفيين مطالبةً بمنع نشر هذا الشعر المستورد (!) لأنّ فيه خيانة لأرض الأجداد على حدّ وصفهم ، ولأنهم لا يحسنون ، في العادة ، غير اللغتين العربية والفارسية . فقد وصفوا الشعر الجديد الاوروبي النزعة بأنه غامض ومتكلف ، وكانوا يستشهدون بأشعار المجددين المتأثرين بالمدرسة البارناسية والمدرسة الرمزية .

لكنَّ أشدَّ هجوم على مجلة ثروة الفنون وكُتّابها ، جاء من جهة الكاتب الشهير أحمد مدحت افندي[٦] الذي كان له يومئذٍ نفوذ هائل بين المتأدبين إذ قام بدور مشابه لدور الكسندر دوماس في فرنسا . لكن روايات أحمد مدحت افندي فقدت القرّاء في عصرنا أو فات أوانها . أطلق أحمد مدحت افندي على الشعراء الروّاد لقب [المتفسخين] ، تشبيهاً لهم بأعضاء الحركة الأدبية الفرنسية الذين عُرفوا يومئذٍ باسم -DECA DENTS اي (المتفسخين) مدركاً ما تولدهُ هذه اللفظة من إيحاءات سيئة في نفوس القراء البعيدين عن الآداب الاوروبية وتياراتها الجديدة . وهكذا وضع بأيدي السلفيين سلاحاً جديداً يحاربون به روّاد الأدب الجديد .

نشير بهذا الصدد إلى أنَّ كتّاب ثروة الفنون ، لم يعبأوا بالحملة المذكورة ، واستمروا في الكتابة ونشر إنتاجاتهم ، لأنهم كانوا يعرفون أنّ المستقبل معهم هم ، لأنّ الحياة لا يمكن أن تقف أو تحمد إطلاقاً .

انصرف توفيق فكرت ، وخالد ضياء ، وجناب شهاب الدين إلى تأليف المقالات التي تدافع عن الأدب الجديد وتوضح أهدافه ، في حين وقع عبء صدّ الهجمات الصحفية على كتفي زميلهم الجسور حسين جاهد يالجين . ومنذ اليوم الأول لوجود توفيق فكرت في رئاسة تحرير ثروة الفنون ، إنصرف إلى تبليغ وجهات نظره هو وأصحابه إلى القرّاء والمثقفين ، في صورة قصائد مؤثرة . فمن ذلك قوله : ـ

مهما قالوا فشعرنا حلوٌ ساحر
الموسيقى الإلهية تُصاغُ
من امتزاج الموهبة بالذوق الجميل
والشعر قد لا يتلاءم مع العقل
لكن الشاعر . . وحده . . قادر
على خلق أجنحة لطير الخيال !

وفي افتتاحية أحد الأعداد قال [لغة الشعر لا بدَّ أن تكون شفّافة مرهفة ، والشاعر عليه أن يخضع لغته لمزيد من الفحص والتدقيق لأنَّ لغة الشعر يجب أن تستثير الأفكار وتحفز المشاعر الغافية أما أدبنا الديواني فهو لا يملك بنيةً سليمةً ، وأراهُ مصاباً بفقر الدم والهزال !] .

استثارتْ حركة التجديد شكوك عبد الحميد وارتاب في نوايا الشعراء الشباب ، فراحت الأوامر الفرمانية التي تضيّق على حرية النشر تتابع . ورغم أن مجلة « ثروة الفنون » كانت بعيدة عن السياسة فإنها لم تسلم من قلم الرقيب يوماً واحداً ، وظلّتْ تعاني أشدّ المعاناة من تدخلاته إلى أنْ صدر الأمر بإغلاقها سنة ١٩٠١ أي بعد خمس سنين من صدورها .

حدث في تلك الأثناء أن اجتمع بعض الأدباء وفيهم توفيق فكرت ، في دار الشاعر إسماعيل صفاء فأنشد هذا قصيدة هجاء لعبد الحميد سرعان ما راحت الايدي تتداولها سرّاً ، ومع أن البوليس فشل في العثور على نسخة من القصيدة ، إلا أن الأمر صدر بنفي إسماعيل صفاء إلى خارج ولاية استانبول . واستدعي توفيق فكرت إلى مركز الشرطة للاستجواب ، وأوقف بضعة أيام ثم أطلق سراحه . لم تُنشر هذه القصيدة إلا في سنة ١٩١٤ ، في عهد الاتحاد والترقي ، لكنَّ الشاعر [صفاء] كان قد مضى على وفاته عهدٌ طويل ، كما أن عبد الحميد كان قد خُلع منذ سنين . في القصيدة حِدَّة تذكرنا بأسلوب توفيق فكرت ، فلنصغِ إلى جزء منها : ـ

حولكَ جَمعتَ حفنةً من الأدنياء
لم تمنعك نفسك عن أقسى الظلم
سرقتَ من الأخ أخاهُ ومن الأب ولدهُ
وجعلتَ التجسس وسيلة الثراء
قدَّمتَ الجُهّال والأنذال والمرتشين

---

[٦] أحمد مدحت افندي : ١٨٤٤ ـ ١٩١٢ : روائي وصحفي ذائع الصيت في تركيا في عهد التنظيمات [الإصلاح] ، صحب الوالي المصلح مدحت باشا سنة ١٨٦٨ إلى بغداد ، حيث أصدر جريدة [الزوراء] بواسطة مطبعة أسسها بنفسه . ثم عاد إلى استانبول سنة ١٨٧١ حيث أصدر مجلات كثيرة منها [عبرتْ] . فنفاه السلطان عبد العزيز إلى جزيرة رودس . ثم عاد إلى استانبول وصار من أشهر الروائيين . نشر من الروايات مائتي رواية !

أرسلت أعظم الرجال إلى المنفى
الشعب لا يطيق تحمل هذا الجور

هـذه القصيـدة تصلح للردّ على أنصـار عبـد الحـميـد والمدافعين عنه ، وتستطيع أن تفحمهم . وفي لهجتها الغاضبة أعظم دليل على احتراق قلب الشاعر بما كان يسمع ويرى هو والناس من مظالم عبد الحميـد . ولم يكن إسماعيل صفاء من أهل المصالح ، ولا يمكن أن يخطر لأحد بأنـه يكذب ، إذ لا يمكن أنْ يُعرّض نفسهُ للخطر ، بدون أي سبب أو فائدة .

ذلك هو الجو السياسي الذي كُتب على « فكرت » أن يتنشق سمـومه في تلك الأيـام ، فكان الغـرق في قرارة اليـأس أمـراً متوقعاً . على أنَّ التشاؤم لم يقتصر على « فكرت » وحده ، بل تماثلت ردود الفعل تقريباً لدى جميع زملائه في ثروة الفنون . ولما كان « فكرت » إنساناً مثالياً وفناناً رومانسياً ، فقد نفضَ يده من الحيـاة الاجتماعيـة وصار يميـل إلى العزلـة . خالـد ضياء الروائي الشهير يصف أحوال فكرت هذه قائلاً [ما يكاد فكرت ينصرف من روبرت كوليج حتى يتملكّه شعور شديد بالقلق نابع من ملاحظته لفساد المجتمع وانقلاب الموازين الخلقية وتفشي النفاق والمراء والشراهة والحسد ، فيحسّ الدنيا كأنمـا تضيق وتضيق إذ يتضاءل عدد أصحابه بعد تحطم آماله في أغلبهم ، ولا يجدُ مفراً من الابتعاد عنهم ، والانزواء وحيداً داخل جدران داره الجميلة [آشيان] الواقعة على البسفور ، تلك الدار التي نقش جدرانها بريشته الخاصة ، لا يجد أمامه غير زوجه ناظمة هانم وابنهما الـوحيد خلوق ، ولا يكـاد يغادر المنـزل إلا إلى المدرسة] .

من المعـروف أنّ كثيـراً من المفكـرين والفنـانين والأدبـاء يتحولون إلى اليـأس حين يتناقض الـواقع مـع المثل الأعلى ، وخـالد ضيـاء ، وهـو واحـد من أولئـك ، يـرسم في روايـاتـه شخصيـات تتعرض لتلك التجـربة كمـا نرى في بـطل روايتـه [الأزرق والأسود] . تلقي الرسالة التالية الضـوء على الحالـة النفسية التي كان فيها توفيق فكرت يومئذٍ ، وهي موجهةٌ منه إلى صديقه سليمان نظيف[٧] : ـ

[يـأس يأس يـأس !! أنـا يـا صـديقي أعيش أزمـة نفسيـة مؤلمـة ، بكلمة واحـدة ، أنا أنـطفىء ، أخمد ! ويـا ويلنا إذا استمـر هذا طـويلاً . أتـريد معـرفة سرّ آلامي ؟؟ لكنـك لن تصدقني إذا اعترفتُ ! أنا نفسي أضحك أحياناً مما وصلتْ إليه حالتي . أنا يا نظيف وحيد في هذا العالم المترامي الأطراف ، بين أصدقائي أحسُّ برعدة برد لا يفهمها غير الذي يسير عارياً بين الناس . ألا ترى الناس جميعاً يسدلون على وجدانهم ستائر سميكـة كي يحجبـوه عن الأعين ؟ لكني أنـا مختلف عنهم ، فوجداني مكشوف معرّىً غير قابل للإخفاء . كل الناس قادرون على تحمل العيش في هذه الظروف التعسة ، كلهم يتنفسـون هواء الرذيلة بلا حياء ولا خجل ، وأنا وحدي عاجز عن ذلك . ما يعذبني هو نداء ضميـري ، ضمير الأدب ، نـاموس الفن ، لكن علينـا أن نقـول لضميـر الأدب والفنّ ، وداعـاً ، وبُعـداً لمشاعر الحياء ! المصيبة يا نظيف أن الجميع يقولون لي : كن مع الزمان وتوافقْ معهُ ، فبحق السماء لا تقلْ قولهم . أخبرني أن الزمان ظالم سخيف جاهل !] .

هذه النفثات المؤثرة لا تدلّ على مزاج سوداوي أو متقلب أو فردي النزعة . وعلينا ألا ننسى أن الهـروب من الواقـع علامـة يتميز بهاْ الأدب والفن في عهود الاستبداد . وحين تكـون آلام الأديب وأحـاسيسه الـذاتيـة هي المـوضـوع الأوحـد لـلانتـاج الأدبي ، فمن الواجب تقصي أسباب ذلك خارج عـالم الأدب والأدباء ، أي في المجتمع ذاته .

وهكـذا لجـأ فكـرت إلى الخيـال مثلمـا يفعـل أي شـاعـر رومانسي ، وفي قصيدته [الأسى] التي نشرت له سنة ١٨٩٥ تتضـح أولى علامـات التشاؤم التي ستميـز شعره لفتـرة طويلة قادمة . في هذه القصيدة التي تسمى عنـدهم [ترجيـع البند] وهو ضرب من الشعر شبيه بالموشـح في أدبنا العـربي ، يختم الشاعر كل [بند] [بالترجيع] التالي : ـ

[همٌ مرعب ، هم أشدُّ ارعاباً حتى من الموت]

هذه الحالة اليائسـة جعلتْ الشاعـر ينظر إلى أيـام الطفـولة بحسرة شديدة . فقد بدتْ في عينيه ملونةً بأحلى الألوان ، ساحرةً جذلة ، لكنّ ذلك كلهُ صار ماضياً بعيـداً ، فالسعـادة أصبحت في حكم المستحيل : ـ

---

[٧] سليمان نظيف ١٨٧٠ ـ ١٩٢٧ حين سقـطت بغداد بيـد الانجليز في الحرب العالمية الأولى كان هذا الاديب الشاعر هو الوالي عليها ، وقد حزن لضياع العراق فكتب سلسلة مقالات وأشعار ، وجمعها في كتاب عنوانه [فراق العراق] ، وحين عاد إلى استانبول اشتغل ببيع الفحم ، حدث أن سأله أحدهم : أتبيع الفحم يا سليمان بـك ؟ فأجاب فوراً : ما دمنا سنخرج من ميدان الحرب بوجه أسود ، أفـلا يحسن بنا على الأقل أن نبيع فحمنا الأسود ؟! ، كان سليمان نظيف من جماعة ثروة الفنـون ، أي أنه من أعـداء العثمانيين ولم يسمحـوا لـه بـالعيش في استانبول إلا بعد إعلان دستور ١٩٠٨ . له مؤلفات كثيرة بين شعر ونثر وتاريخ وسياسة .

الليل الداجي لا يسري
الشعر الحزين هو لسان حالي

ووقعتْ الكارثة في سنة ١٩٠١ . ففي هذا العام ، كتب حسين جاهد في مجلة ثروة الفنون مقالاً بعنوان [الأدب والحقوق] ، أغضبَ السراي ، وأدى إلى إغلاق المجلة العزيزة على قلب توفيق فكرت ، فكانت هذه صدمة شديدة لم يكن في مستطاع فكرت تحملها ، وكان من نتائجها أن انسحب نهائياً من الحياة العامة واعتزل الناس في داره (آشيان) . وفي هذه الفترة الخطيرة في حياة « فكرت » بدأ في كتابة مطولاته السياسية الملتهبة ضدّ عهد عبد الحميد ، معلناً في الوقت ذاته أفكاره العصرية وآراءه الجديدة .

كانت قصيدة الضباب [SIS] التي ذاعت سنة ١٩٠٢ [تناقلها الناس سراً ولم تُنشر في وقتها] ، بمثابة البركان الذي تفجر على غير انتظار وقذف بالحمم إلى أعالي السماء ، فلقد نفَّسَ بها الشاعر عن مشاعر الحنق والغيظ والأشمئزاز التي كانت تختنقُه خنقاً . في القصيدة نجح فكرتْ بأن يمزج الخاص بالعام مزجاً رائعاً ؛ ففي أحد أيام شتاء ذلك العام ، وقف الشاعر عند نافذة منزله (آشيان) يتأمل الطبيعة ، فخطرَ له أن الغيوم السود الحالكة التي تغطي سماء استانبول ، ليست إلا انعكاساً للظلمات الرهيبة التي تلفُّ أجواء البلاد كلها تحت نير الاستبداد العثماني . وفي القصيدة أيضاً تجلت شخصية فكرت بأوضح صورها . أخيراً فإنَّ قصيدة « الضباب » أصبحت أصدق وثيقة اتهام للحكم العثماني : -

مرةً أخرى الدخان العنيد يلفُّ سماءكِ
تدريجياً تتراكم الغيوم الرمادية
تلك الحُجب الحالكة ، والآفاق الكَدِرة
تناسبكِ يا أيتها المدينة اللعينة ، يا ساحة المظالم
الخيانة امتزجت بأحجار عرشك منذ يوم تأسيسهِ
والبناء تعالىٰ بماء اللعنات المسمومة
كل ذرّة من أحجار البناء لا تحوي غير قذر الرياء
الطهر لا أثر له في أحشائك
لا شيء هناك سوى عفن الكذب وجشع المصلحة
لا شيء هناك غير نفثة الحسد يا بلد الوحشية
عارك فاستريه ! وفي رقدة الموت غُطّي يا فاجرة العصور !
أما أنتَ ايها الدستور ، أيها الحلم الجميل المقترن بالحرية
هل كنتَ إلا أسطورة وهمٍ وخيال ؟

بعد « الضباب » توالت القصائد الناريّة واحدةً بعد الأخرى : [لو هلَّ الصباح] و[الماضي والآتي] اللتان ظهرتا عام ١٩٠٥ و[لحظة تأخر] التي كُتبتْ عام ١٩٠٦ ، وغيرها من الأشعار التي لم يُكتب لها النشر ، وإنما ذاعتْ عن طريق التداول في الخفاء . في جميع هذه القصائد يتوقع فكرت دنوّ موعد الثورة على السلطان المستبدّ . في [لو هلَّ الصباح] يقول :

الفجر آتٍ فلا بُدَّ من نهاية لليل
والسماء المزرقَّة ستتألق بالنور عن قريب

وفي [لحظة تأخُر] التي كتبها الشاعر إثر فشل محاولة لاغتيال السلطان عبد الحميد ، تجلت حالة الفرح الذي تملك قلبه حين علم بوجود إنسان شجاع يتجاسر على السلطان بهذه الصورة ، وبعد ذلك ينقل الشاعر خيبة آمال الناس لعدم تحقق الأحلام .

وفي سنة ١٩٠٨ أعلنت المشروطية الثانية [دستور ١٩٠٨] فكان له دويّ هائل في جميع البلاد العثمانية ، وشعر فكرت بانفعال بهيج ، فكتب قصيدة [رجوع] :

لا . . . أبداً . . لن تعود الأيام اللعينة
لن تسيل من العيون دموع الأحزان

لكنّ السعادة لم تدمْ وسرعان ما أُعلن عن حلّ مجلس المبعوثان ، وصحا الناس من أحلامهم الجميلة على خواء وفراغ . واحتدم الغضب في صدر فكرت ، وكتب قصيدته [عودٌ إلى ٩٥] ، معيداً إلى الذاكرة ، حادثة حَلِّ المجلس عام ١٢٩٥ هـ /١٨٧٨ م بأمرٍ من عبد الحميد .

واهاً لنا . . ثلاثة وثلاثون عاماً من الدموع
خيبات نكبات أزمات أهوال
أملٌ يبتسم لنا حيناً
وبلاء يحيق بنا حيناً آخر
مثل سيلٍ يجرف كل ما أمامه
وما بين التاريخ يسكبُ لعناته !
حتى هذا اليوم . . . ليس أمامنا غير الظلمات
حتى هذا اليوم . . حُصّتنا الجهل والغفلة
حتى هذا اليوم . . لا مُلْك لنا غير الحزن
حتى هذا اليوم لا يتوقع الأشراف غير لطمات التنكيل
كيف يعيش الناس إذا ذبلت شجرة الحق
وتكسرتْ غصونها فتناثرت أوراقها في مهبّ الرياح ؟

ولما تكشَّف أمام الأنظار فساد حكم الاتحاديين تحت إدارة

السلطان محمد رشاد ، شحذَ فكرت قلمَهُ من جديد ، ومرة أخرى تتابعت قصائد الهجاء ، موجهةً إلى الاتحاديين الذين خيّبوا الآمال وأساءوا استخدام سلطتهم . فيما يلي جزء من قصيدة بعنوان [مأدبة النهب] : ـ

هذه المائدة ، أيها السادة تنتظر من يلتقم !
إنها حياة الشعب المرتعد في حضوركم
هذا الشعب المضطرب ، هذا الشعب المحتضر
لكن إياكم من التهيُّب ، كُلوا ، ازدردوا
ابتلعوا كل شيء أيها الاسياد ، فالمائدة الشهية أمامكم
كلوا حتى الشبع ، حتى التخمة ، حتى الانفجار !
أنتم أيها السادة جياع جداً ، هذا واضح على أوجهكم
كلوا إذن ، فإنْ لم تأكلوا اليوم فربما لن يبقى لكم غداً شيء !
شاهدا نادي النعيم هذا ، إنه يزهو بقدومكم
فكلوا . . . ذلك حقكم بعد الغزوات ! وهو ملك لكم !

على هذه الصورة استقرَّ الاتجاه الأدبي لفكرت ، فأصبح فنُه تجسيداً لمذهب [الفنّ من أجل المجتمع] . وفي تلك الأيام كان يعلن أن [الفن لا يمكن أن يكون شخصياً ، لأنَّ الفنان ليس من محقه الانفصال عن الحياة من حوله ، بل إن إهتمامه بصدق التعبير عنها يزيد من قيمة فنّه] . إنّ مطولة فكرت [التاريخ القديم] ، هي أحسن مثال لاستخدامه الشعر وسيلة دفاع عن المجتمع ، وأسلوب تحريض ضدّ الحكومات الجائرة :

كلما مرّت الجيوش الجرارة سالت الدماء أنهاراً
وصعَّرَ أحدُ الأمراء خدّهُ زهواً وفخاراً
وتتابعتْ صفوف الأسرى ؛ غالبٌ واحد يقابلهُ عشرة مغلوبين
المنتصر دائماً على حقّ ، والمهزوم لا بدَّ على باطل!
الحقُّ لا تنبس به شفة ولا يتفوه به لسان
الخير تحت الأقدام والشرُّ في الأحضان
لا حقيقة إلا الأغلال ، ولا بليغ إلا السيف
والحقُّ هو القوة !

والحكمة الفصحى في الحروب كما يلي : ـ

اسحقوا المهزوم أبيدوه
الدين يطالب بالشهداء فليس ثمة إلا الدم
الدم رمز البطولة فلتطيعوا الأوامر
هدموا اسحقوا اقطعوا أحرقوا
لا ترحموا مستغيثاً ولا تصغوا إلى آهة
دمّروا المساكن واسبوا النساء
وألحقوهنّ بأذيالكم كقطعان الأنعام
وإياكم أنْ تصغوا إلى أنين أطفالهن !

* * *

ما أحلى العيش دون قهر أو استعباد
كما سيقع في العصور المضيئة الآتية
حين تسود الحرية بأنوارها فلا ظالم ولا مظلوم
لا حروب ولا قتلى لا شكاوىٰ ولا أنّات
أنا أنا ، أنتَ أنتَ ، كلٌ لنفسهِ
فلا أسياد ولا عبيد .

من هذا يبدو أن التاريخ في رأي « فكرت » سلسلة حروب دموية ظالمة لا هدف لها إلا السلب والنهب وإشباع الغرائز الحيوانية ، وبهذا الرأي يعارض فكرت أولئك الذين يضفون على التاريخ مسحة رومانسية لا نصيب لها من الواقع ، متظاهرين بتصديق ادعاءات المؤرخين المتمسحين بأعتاب الغزاة الذين كانوا لا يفتأون يثيرون الحروب تحت شعارات برّاقة مزيفة . وهو يخلص إلى أن تلك المغازي عارضت مجرى التقدم الحضاري على الضدّ من جميع مزاعمهم الكاذبة . أما البطولات الفردية التي ينسبها المؤرخون إلى آلملوك والقواد القدامى ، الذين إعتادوا اجتياح الأراضي وغزوها بلا مبرر ولا ضرورة ، فليستْ إلا شواهد على همجيّتهم وخلّوهم تماماً من مشاعر الشفقة والرحمة . ناهيك عما كان يعقب الحروب من كوارث وفواجع من أوبئة ومجاعات وسقوط للقيم الأخلاقية ، وانهيار للاتقاصاد وخراب للمجتمعات .

أثارت قصيدة « التاريخ القديم » ضجيجاً مدوياً ، فقد قلبتْ مقاييس المحافظين رأساً على عقب ، إذ أزالت الحجب عن المومياءات العفنة التي طمرتها الدهور فأضفىٰ عليها مضي السنين هالة برّاقة من الأوهام الجميلة والأخيلة الرومانسية التي لا نصيب لها من وقائع الحياة الحية . وهكذا هبَّ أنصار القديم يهاجمون فكرت ويقذفونه بأشنع التهم التي لم يكن أقلها الإلحاد والفوضوية وتلويث المقدسات ، وما إلى ذلك ، دون أن يكلفوا أنفسهم مراجعة تناقضات التاريخ ذاته ، ليتأكدوا من صحة آراء فكرت أو من بطلانها .

قد يكون تاريخ الأدلة العثمانية الملطخ بدماء أبناء الشعوب المغلوبة التي خضعتْ قروناً طوالاً لحكمهم الجائر ، هو المسؤول عن غرس بذور الكراهية في نفس فكرت ضد جميع أشكال العنف والقسوة ، ووقوفه بحزم ضد المنتفعين من إشعال

نيران الحرب في كل زمان ومكان ، وربما كان ذلك سببا ، في الوقت ذاته ، في مهاجمته للتعصب المذهبي والديني في كل مناسبة لأنَّ التعصب لا بد أن يؤدي إلى اندلاع نيران الفتنة ومن ثم الحرب .

لناظم حكمت ، الشاعر الشهير ، رأي قد يكون مخالفاً لآراء بقية النقاد في شخصية فكرت . يرى [ناظم] أن توفيق فكرت مثّلَ آمال وتطلعات طبقة المثقفين في عصره ، ولذلك ظلَّ مزاجُهُ متراوحاً بين أقصى التفاؤل وأقصى التشاؤم ، وذلك بحسب الظروف المتناقضة التي كانت الدولة العثمانية تمرُّ بها وقتئذٍ . فليس غريباً أن نراه حيناً مستبشراً بالمستقبل راضياً عن الحاضر ، بينما ينساق في حين آخر إلى اليأس الأسود متوقعاً لوطنه أسوأ المصير . ولما كان فكرتْ شديد المثالية فإنه كان معرضاً دوماً لضيق الصدر ونفاد الصبر ، بسبب خيبته المُرَّة في إمكانية تحقق الأحلام بالسرعة التي يتمناها ، وبهذا يمكن أن نعدّ [فكرت] إنساناً فردي النزعة ، يؤكد ذلك كثير من أقواله ومن أشهرها :

رقبتي لن تنحني تحت أسر الاستعباد
في أجوائي أطير وفي أفلاك ذاتي أجول !

هذه الأبيات وأمثالها توضح اتجاهات فكرت الأساسية : فهو إنسان مثالي صوفي قريب إلى الطبيعة الانطوائية أو ميّالٌ إليها . ومع ذلك فإنَّ ناظم حكمت لم يحاول يوماً الانتقاص من قيمة فكرت إنساناً أو فناناً ، بل اعتاد أن يشيد بوطنيته الأصيلة وبمواهبه الابداعية الفذة في عالمي الأدب والثقافة ، مثنياً في الوقت ذاته على الخدمات الجليلة التي قدَّمها فكرت للأجيال الشابّة . ومن المهمّ في رأي [ناظم] ، أن نؤكد بأنَّ (فكرت) ما كان قادراً في الظروف التي عاشها أن يصنع أكثر مما صنع ، فالإنسان رهين بالظروف وبشروط العصر ، ولا يمكنه القفز فوقها ، مهما بلغت قدراته ومواهبه .

في سنة ١٩١١ ظهر [دفتر خلوق] ، وكان ابنه خلوق قد رحل تواً إلى سكوتلندا للتخصص في الهندسة ، وتضمن الديوان مجموعة قصائد اجتماعية المنحى ، إنسانية الطابع . أما إسم خلوق فقد استخدمه كرمز للأجيال الطالعة من الشباب الذين لم يتعرّضوا بعد لإغراء المناصب والمطامع ، والذين عقد عليهم [فكرت] حميع آماله في تحقيق المثل العليا التي آمن بها طيلة حياته . يقول في واحدة من قصائد الكتاب : ـ

من قطع طريقه ركضاً فسوف يبلغ غايته
ومن تعثّرت خطاهُ فلا بدَّ له أن ينهض
الماء يتقطّر من شقوق حصى الينبوع
قطرةً بعد قطرة حتى يصير بحيرة من فضّة
والحقّ تسير إليه خطوةً فخطوة
الحقّ هو القوة الوحيدة في الكون .

وفي قصيدة بروميثيوس ، يقدم فكرت إلى الشباب نموذجاً للشجاعة والعظمة ، إذ يقف بروميثيوس في وجه زيوس ربّ الأرباب متحدياً : ـ

ليس من قوة تجبرني أنْ أبوح بالسِرّ
ليفجرّ زيوس البروق والروعود في السماوات
ولترفرف أجنحة الثلج فوق القيعان
لِتدمّر الزلازل والبراكين العوالم جميعاً
فلن أتكلم ولن أغيّر آرائي .

وحين يشتدّ عليه العذاب وتثقل أوجاعه ، يلتمس العزاء في تذكر فضائله الجميلة :

في كل لحظة ينبض في القلب توقٌ علويّ
أحسَّ لذع ناره فأسأل محزوناً
أيقيمون في السماء وأنا في الحُفَر ؟
أتضحك الأكوان مني ، ودموعي عزائي الوحيد ؟

لكنَّ نسمة الحياة في جسده تمدّهُ بالقوة ، وتعاودهُ شجاعتُه حين يفكر بنار العلم التي سرقها من السماء ووهبها للإنسان الهابط على الأرض : ـ

أيّتها الحياة الملتهبة يا روح جميع الكائنات
ليس جديراً بالتقديس إلا الإنسان !
فهو سيّد كل شيء على سطح الأرض .

في قصيدة [آمنتُ] يقدم فكرت لابنه [خلوق] المبادىء التي يريد له أن يعتنقها ، لأنها نتاج الحضارة العصرية التي يصرُّ العثمانيون على رفضها وإنكارها . وهو يرى أنَّ وطن الانسان يجب أن يمتدّ ليشمل الأرض كلها ، فالإنسان هو ابن الأرض ، والبشر بهذا المعنى أخوة لأن أمهم واحدة . ثم إن الأرض ، ما دامت آهلة بالبشر ، فإنَّها جَنَّتهم الحقيقية . ويعلن فكرت أيضاً أن المستقبل لصيقٌ بالعقل ، لأنّ الحضارة هي بنت العقل ، في حين تنبع الهمجية من الغرائز العمياء والنزوات الآنية ، والعقل عنده معادل للحقيقة . كل هذه الأفكار لا بدَّ أن تعيد إلى الذاكرة أفكار الشاعر الانجليزي الرومانسي شيللي ، في قصيدته المطولة [بروميثيوس طليقاً] . وخلاصة مذهب [فكرت] في هذا الديوان هي [اؤمن بعالم إنساني عقلاني

مرتبط بالحياة] .

في هذه المرحلة يبدو توفيق فكرت متفائلاً متوقّعاً للبشر مستقبلاً عظيماً تسود فيه مبادىء الحرية والعدالة والثقافة للجميع . وهو لا يكتفي بالتعميمات الغامضة بل يشدّد على أن الحضارة الحقيقية هي حضارة عصرنا الحديث التي يتربع العالم الغربي على قمتها ، لأنّ العلم ، الذي هو عصارة هذه الحضارة ، مستقرٌ في أيدي أبنائها .

إنَّ قصائد [دفتر خلوق] كتبتْ جميعاً بين ١٩١٠ - ١٩١٢ أي حين كان العهد بإعلان الدستور وبسقوط استبداد عبد الحميد ما زال قريباً .

لما كان فكرت مهتماً بتربية الشباب فإنه لم يغفل الحديث ضمن قصائد الديوان ، عن أحد أهمّ أسباب تأخر البلاد العثمانية عموماً ، ألا وهو انحطاط قيمة المرأة في المجتمع . ففي إحدى القصائد أعاد الشاعر إلى الأذهان عهود ازدهار الدولة العثمانية ، وما قدمتهُ من منجزات حضارية ثم تحول إلى الدفاع عن الثقافة والعلم ، وانتهى إلى التذكير بانحطاط مركز المرأة في العصر العثماني الأخير مشيراً إلى أن أمةً تهمل نصف المجتمع بأية ذريعة كانت ، تاركةً هذا العدد الضخم من أبنائها في دياجير العمى والتأخر إنما تصيح بأعلى صوت معترفةً بضعفها وعجزها .

في إنتاجه الشعرّي مَرَّ [فكرت] بعدة مراحل ؛ ففي عهد كتابه [القيثارة المحطمة] يبدو شاعراً فردي النزعة ، شديد الاهتمام بالشكل والصنعة ، في حين نجدهُ مع [دفتر خلوق] منحازاً إلى مذهب [الفن في خدمة المجتمع] . أما عن فترة ديوان [شيرمين] فإنه يعود إلى الحنين إلى أيام الطفولة ويكتب قصائد للاطفال ، فيكون بذلك أول شاعر تركي يوجه شعره هذه الوجهة التربوية .

بهذا يمكننا القول إنّ صلة [فكرت] بالفن والمجتمع تطورت بالشكل الذي نتوقّعه من أي شاعر كبير مثله . في قصيدة [آمنت] يوجه الناس إلى الإيمان بقدراتهم الذاتية الخلّاقة من ناحية ، وبالاخاء البشري من ناحية أخرى : -

الأرضُ وطني وجنس البشر قومي
الشيطان هو نحن ، والجن نحن أيضاً
والفردوس الحقيقي هو دنيانا هذه

ثم يعلن ثقته بالنظريات العلمية الحديثة حول المادة والحركة والطاقة الخ مؤيداً فكرة التطور الذي يراه سُنّة الكون ؛ لأنَّ الكتب الدينية أيضاً تؤكد هذه الحقيقة الواضحة .

إنَّ [دفتر خلوق] يتضمن تأكيد حاجة الامبراطورية العثمانية إلى الإنسان العصري ، الذي لا يستطيع غيره إنقاذها من الهوة التي وقعتْ فيها . كما أنّ أشعار هذا الديوان هي دعوة حارّة إلى تغيير مناهج التعليم وشؤون التربية من اجل صنع ذلك الإنسان .

في ذلك العهد انشغل التربويون الأتراك بمناقشات حامية حول إصلاح التعليم ، ووقف [فكرت] إلى جانب الرأي الذي يحبذ إصلاح المناهج من المراحل الدراسية الأولى أي الابتدائية رافضاً فكرة التركيز على الدراسات الجامعية بحجة الاحتياج السريع إلى الخريجين . ولكي يساهم في تسهيل الأمر على واضعي منهج القراءة والمحفوظات للمدارس الابتدائية ، نشر ديوان [شيرمين] هديةً مجانيةً إلى الأطفال . أهملَ فكرت في أشعار الديوان أوزان العروض التقليدية مستخدماً بدلها أسلوب التفعيلة [HECE] في الوقت الذي خلّص شعره أيضاً من جميع المحسنات البلاغية . وتجلت في هذه الأشعار أهداف فكرت التربوية ، فقد كان من رأيه أنّ الهدف الأساسي للتعليم هو إعداد الطفل للحياة ، وليس مجرد حشو دماغه بالمعلومات . من ناحية ثانية أيَّد (فكرت) آراء الفيلسوف الاميركي جون ديوي في التربية مطالباً بتطبيق أسلوبه في تعليم الأطفال عن طريق اللعب . والاهتمام بالتجربة والتطبيق أكثر من الحفظ عن ظهر قلب لمفردات وتفاصيل المادة العلمية ، يقول فكرت في إحدى قصائد الديوان : -

اليد والذراع في حاجة أبدية إلى العمل
وإلى العمل تسكن النفسُ وترتاح
بالعينين ينظر الإنسان ويتأمل
وباليد يحرك الآلة ويحقق المقاصد
فلا تصدق الأكاذيب التي تنكر هذه الحقائق
لأنَّ العظمة كلها في اليد العاملة .

وينصح فكرت الآباء والمربين باتباع أسلوب الإقناع وليس الفرض بالقوة والعصا ، أو بالتهديد والتخويف من العفاريت والجنون ، وذلك يقودهُ إلى تنبيه المربين لِـ غرس حبّ الطبيعة وعشق الحياة في نفوس الأطفال ، ونبذ الطرق التعليمية البالية القديمة .

ولما كان (فكرت) متمكناً من العروض ، فقد استطاع أن يُكيِّفه لمقتضيات اللغة التركية وأصواتها ، بدلاً من طريقة

الشعـراء الديـوانيين الـذين كـانـوا يـطوعـون الحـرف التـركي لمقتضيات العروض ، وهو شيء غير طبيعي لغوياً وفنياً .

ترجم فكرت كثيراً من أشهر القصائد الفرنسية إلى التركية ، وأحبَّ في الشعر الغربيّ عموماً أنه نابع من صميم الحياة ومعبر عن أحاسيس الشاعر نفسه ، وإنه لا يستسيغ التقليد ولا يعرفـه . ولم يتردد فكرت في مهاجمة الشعـر الديـواني بشدة وبعنف ، دون تحرج من الشعراء المقربين من القصر ، المصـرّين على المحافظة على القوالب الشعرية البالية التي أكل الـدهر عليهـا وشرب ، حتى تحجرتْ وتحولت الى مومياءات !

ومع ذلك فإنَّ لغة فكرت ظلَّتْ أساساً ، لغة عثمـانية ، ولم تكن تركيةً عصرية ، لكن أسلوب الإيجاز الذي أخذ بهِ ، أعانهُ على التعبير عن أفكاره العصرية الحديثة بسهولة ويسـر . ويُعَدُّ فكرت الشاعر التركي الأول الـذي سعى جدياً وعن قصد إلى كسر وحدة البيت ، إضافةً إلى أنهُ وفق إلى نفث الروح والحركة في الشعر التركي .

إنَّ تأثر فكرت بالمدرستين البارناسية والـرمزيـة انعكس في شعره على شكل عناية شديدة بـالإيقاعـات والأنغام ، كمـا أنه يبدو في أحيان كثيرة في قصائده ، وكأنَّهُ رسّام أو مصوّر .

بعد [فكرت] تصاعد اهتمام الشعر التركي بالعلم والفكر ، مقتفياً خطى هذا الرائد الشجاع . وبهذا يكون فكرت الشاعـر الأول الذي نجح في إنقاذ الشعر التـركي من الأجواء الصـوفية التهويمية التي غرق فيها لمئات السنين وفي تحويله إلى فنٍ ذي صلة بالحياة اليومية وبالأحاسيس الفردية .

يصف الشـاعر الشهيـر أحمد هـاشم الآلوسي[٨] شـاعـريـة [فكرت] على الشكل التـالي : [أُشَبِّهُ فكـرت ببحر تتـلاطمُ أمواجه فوق كتل صخرية هائلة ، بينها يتألق برج ذهبيّ سامق ، على قمته يجلس توفيق فكرت].

أتاتورك وتوفيق فكرت

عُـرِف عن كمال أتـاتورك حبّـه الشـديـد لتـوفيق فكـرت ، وإعجابه العظيم بشعره ، رغم عدم وقوع أي تعـارف بينهما . وهناك مناسبـات كثيرة اكتشف فيهـا الناس مـدى هذا الحبّ . فبعد مضيّ ثلاثة أعوام على وفاة فكرت ، حدث أن مَرَّ موكب مصطفى كمال باشا بردميلي حصار التي تقع فيها دار [آشيان] حيث قضى [فكـرت] آخر سنـوات حيـاتـه . وكـان الكـاتب سليمان نظيف ضمن المرافقين فاستأذن الغازي كمال أن يسمح له بالتوقيع في دفتر الذكريات الموجود في مـدخل الـدار . ثم كتب العبارة التالية [المتفاخـر بحبّ فكرت حبَّ عبـادة ، في ذكرى طوافنا بداره . التـوقيع سليمـان نظيف] ومـا كان أشـدّ دهشة الجميع حين تقدم مصطفى كمال ووضع توقيعه هو الآخر بجانب توقيع سليمان نظيف معترفاً بهذا أمام التاريخ بأنّ حُبَّـهُ لفكرت يصل إلى حدّ العبادة . وقع هذا الحـادث في ١٩ آب ١٩١٨ .

وفي أحد أيام سنة ١٩٢٥ ، كان مصطفى كمال يزور مدرسة للبنين ، فقال للمعلمين [تذكروا دائماً أنَّ الجمهورية تطالبكم بانشاء جيل شبيه بالجيل الذي أنتج توفيق فكرت ! وإيـاكم أن تنسـوا شعاره الجميـل : [فكرٌ حـرٌ ، وجـدان حُـر ، عـرفـانٌ حُر !] .

ثم إن أتاتورك زار مدرسة للبنـات ومضى يُحَدّث الـطالبات عن أحوال المرأة التركية وعن مستقبلها . وختم كلامه بما يلي [في هـذا المقام لا أنسى قـول المرحـوم توفيق فكـرت : إذا تعرضت المرأة للهوان سقط المجتمع في هوة الانحطاط] .

في مناسبة أخرى ، كان كمال أتاتورك يقوم بنزهة بحـرية ، فتجمّع حوله طائفة من الشبان وراح يتحدث إليهم . ثم إنتقل الحـديث إلى الأدب فاستـأذنه أحـدُ الشبـان أن ينشـد قصيـدة [الغد] لتوفيق فكرت . فوراً لانتْ أسارير مصطفى كمال وقال مبتسماً [الغد ؟ هذه أحب القصائد إليّ وأحبُ أن أنشدها لكم بنفسي] . ثم مضى يتلو القصيدة بيتاً بيتاً ، دون أن ينسى منها شيئاً : -

كُلُ شيء هو لكم أساساً أليس كذلك يا شباب ؟
تعرفون أنَّ عصرنا هذا هو عصر النور عصر الازدهار
كل ليلـة . . مع بريق كل نجمة ، يختفي ظلٌ قاتم
فتتفتح آفاق الروح وتسمو إلى العُلى
فلتحولوا وجوهكم إلى السماء حتى تلمسَ أديمها
ولتشاركوا الطيور تحليقها نحو اللامحدود
جدّوا كافحوا فكروا ابحثوا
اجروا ثبوا اهتفوا أجمعين :

---

[٨] **أحمـد هاشم الآلـوسي** : [١٨٨٤ - ١٩٣٣] : أهم شعراء جمـاعة [الفجر الآتي] التركية الأدبية ، جدهُ الثاني هو الكاتب الشهير محمود شهاب الدين الآلوسي . وُلد أحمد هاشم في بغداد لكنه قضى كلَّ حياته في استانبول . من الشعراء الذين أثـروا فيه : تـوفيق فكرت . التـزم [هـاشم] بنظريـة الفن للفن مثل جمـاعـة [الفجـر الآتي] . تـأثـر بالمدرستين الرمزية والانطباعية ، لكنه على العموم حافظ على تقاليد الأدب العثماني الديواني . ليس في شعره أية اتجاهات اجتماعية .

زمن الخمول مضى وعصر الكفاح قد حان .

في سنة ١٩٣٨ قدم أتاتورك إلى بلدة (ايلازك) ، وفي إجتماع عقدهُ مع أهاليها أشار أتاتورك إلى الأديب (إسماعيل مياكون) أن يلقي على الموجودين طائفةً من أشهر قصائد توفيق فكرت ، فشرع الرجل بانشاد قصائد [الغد] و[الضباب] و[رجوع] الخ . ولما بدا التعب عليه توقف قليلاً التماساً للراحة ، فالتفت أتاتورك إلى الحاضرين قائلاً : ـ أتعرفون شاعراً غير فكرتْ أبدع مثل هذه الأشعار الثورية ؟

ثم عاد الأديب إلى إنشاد الأشعار ، ومصطفى كمال يستعيد الأبيات مرةً بعد أخرى دون ملل أو كلل . بعد ذلك شرع الرجل بإنشاد هجائية [فكرت] للشاعر السلفي محمد عاكف[٩] فتجلتْ أمارات السرور على وجه أتاتورك ، ومضى يدير بصرهُ مبتهجاً في وجوه المستمعين . ولما انتهى الرجل من إنشاده بدأ مصطفى كمال بالتحدث عن كفاح فكرت ضدّ الرجعيين أنصار الفكر العثماني المتأخر ، وعن إيمان فكرت بالمستقبل وبالإنسانية ومُثلها الجميلة .

وفي الحقيقة فإنَّ تعاطف أتاتورك مع فكرت يجب ألا يثير الاستغراب . ذلك أن أفكار هذا الشاعر كانت اللبنات الأساسية في بناء الثورة التركية الحديثة ، وفكرت بهذا المعنى كان المهندس الأول لفكر تلك الثورة .

يقول الكاتب المعروف جتين اكتان [إنَّ فكرت أقرب إلى تركيا الحاضرة من تركيا التي عاش فيها ، ولو عاصرنا لاستطعنا أن نفهمه أفضل مما فهمه الذين أقام بينهم . إن جميع مؤيدي أتاتورك ، وجميع العصريين لا بُدَّ لهم أن يتعرفوا على آثار هذا الإنسان والشاعر الكبير . فلقد كان فكرت أشدّ الثوريين حميةً وشجاعةً وإخلاصاً] .

[٩] محمد عاكف أرسوي : ١٨٧٣ ـ ١٩٣٦ . كان إنساناً قوي الشكيمة وشاعراً متنوع المواهب . تخرج في المكتب البيطري ومارس المصارعة وشارك في حرب التحرير بالأناضول . وكتب (مارش الاستقلال) الذي ما زال حتى اليوم ، النشيد الوطني الرسمي لتركيا ، رغم الخلاف الشديد الذي نشأ بين أتاتورك وبين الشاعر . . عُرف عن محمد عاكف العداء الشديد للحضارة الغربية الحديثة ، والتعصب للاتحاد الإسلامي . أفكاره قريبة من أفكار جمال الدين الأفغاني . كان إعلان الجمهورية في تركيا برئاسة كمال أتاتورك بمثابة ضربة قاضية على محمد عاكف . قضى العقد الأخير من عمره في مصر مدرساً للغة التركية في جامعتها .

المجابهة مع الشاعر محمد عاكف أرسوي

لا يمكننا أن نعدّ الجدال الذي احتدم أوارهُ بين توفيق فكرت ومحمد عاكف على صفحات الجرائد والمجلات ، معركة أدبية بأي شكلٍ من الأشكال ، ذلك أن الخصومة التي ثارت بين الطرفين لم تكن ذات صِلة بقضية لغوية أو بمحتوى أدبي ، كما أنها لم تسفر عن أي موضوع ثقافي محدد . ثم إن هذه الخصومة لم تبدأ في تاريخ معيّن ، فمع أنّ الجدال ثار منذ عام ١٩١٢ ، إلا أن بذور الخصومة كانت قد ألقيتْ قبل ذلك بوقت طويل . ثم إن الشِقاق والشجار لم ينتهيا بوفاة الشاعرين ، بل إستمرا إلى ما بعد ذلك لِفترة طويلة . بل يمكن القول إن المعركة ما زالت محتدمة حتى اليوم يجسدها ذلك الصراع الأبدي بين القديم والجديد .

كان محمد عاكف أرسوي رجلاً محافظاً ، شديد النفور من الروح التجريبية القلقة التي تميّز الحضارة الغربية الحديثة ، مفضلاً عليها السكون اليقيني الراسخ الذي هو طابع السلفيين جميعاً . ولما كان مؤمناً بفكرة « إتحاد الملة الإسلامية » التي نادتْ بها الدولة العثمانية ، كي يسهل عليها حكم جميع الشعوب الإسلامية المتباينة الداخلة في جسم الامبراطورية ، فإنّ المبادىء القومية التي نادى بها أتاتورك زرعت في قلب محمد عاكف بذور الرعب إذ أدرك بأنّ انتصار هذه الأفكار لا يعني ، في النهاية ، إلا انحسار السيادة العثمانية عن الشعوب الإسلامية ، وزوال جميع الآمال ببزوغ فجر الدولة الإسلامية الكبرى التي تصور أنها وحدها القادرة على كسف شمس الحضارة الغربية الحديثة . ومن أقوال محمد عاكف الشهيرة ما يلي [النبي محمد لعن التعصب القومي] .

عُرف عن محمد عاكف إخلاصُه الشديد لمعتقداته ، ولم يكن في آرائه الاتحادية عيبٌ ، لو لم يكن الألمان هم الذين كانوا يغذون تلك الاتجاهات . وقد أشرنا إلى أن الاتحاديين (ومحمد عاكف عضو في جمعيتهم) ، كانوا منحازين إلى الألمان ، لأن قوتهم الأساسية مستمدة منهم ، ولهذا كان محمد عاكف ضمن المثقفين الأتراك الذين دُعوا إلى زيارة المانيا وقتئذٍ [توثيقاً للعلاقات بين البلدين] ، ولهذا السبب أيضاً إختارهُ الاتحاديون للتوجه إلى الجزيرة العربية ، من أجل إقناع شيوخها بالانضمام إلى تركيا ، في حين كان [لورنس] الانجليزي المختص بالشؤون العربية ، قد نجح في اكتسابهم إلى بني قومه . وكان الهدف الأول للانجليز في ذلك الوقت ، تقسيم ممتلكات الرجل المريض بينهم وبين زملائهم الاوروبيين .

مع هذا الاختلاف الجذري بين توفيق فكرت ، ومحمد عاكف ، فإنّ بعض الدارسين رأى أن التماثل التام بين شخصيتي هذين الشاعرين كان هو السبب الحقيقي في الخصام الذي وقع بينهما ، لأنَّ التماثل التام قد يؤدي إلى النفور وليس إلى الوئام ، في كثير من الأحيان . لقد تميّز كلٌ من الشاعرين بالانفعالية العالية وبالاخلاص الشديد للمبادىء التي يعتنقها ، وبرفض أي نوع من التساوم على تلك المبادىء . ومن أوجه التشابه بينهما أنَّ كلاً منهما كان ساخطاً على الوضع القائم لكن أسباب ذلك السخط لم تكن متقاربة ، كما أن الغايات التي سعى كل منهما إلى تحقيقها تباينت تماماً ؛ توفيق فكرت كان مؤمناً بالحضارة الغربية الحديثة وبقيمها الإنسانية التي كافحت شعوبها طويلاً من أجل تطبيقها ، كان متمسكاً بالمدنية [لُبّها لا قشورها] واثقاً بانتصار العلم على الخرافة والجهل ، تواقاً إلى نقل جميع ثمار الحضارة إلى وطنه بخاصة وإلى الشرق عامةً . أما محمد عاكف فكان على الضد من ذلك تماماً ، فهو خائف من المدنية الغربية ، مرتاب بثمار العلم ، حاقد على الروح التجريبية التي تمثّل الحجر الأساس في بناء تلك الحضارة ، من ثم كان محمد عاكف شديد الحرص على رسوخ كيان الدولة العثمانية بأي ثمن كان ، مع أنها كانت تمثل قلعة الرجعية في العالم يومئذٍ . لقد آمن بوجهة نظر ذات طرف واحد . والواقع أن مأساة محمد عاكف تلخصتْ في أنه لم يميز بين الشعارات وبين تطبيقاتها ، وكان عليه أولاً أن يسأل نفسه : ما سرُّ تمسك الألمان به وبأمثاله من أعداء المدنية الحديثة ، مع أن ألمانيا نفسها هي إحدى ركائز المدنية الغربية العصرية ؟ .

نشر توفيق فكرت قصيدته الثورية [التاريخ القديم] سنة ١٩٠٥ ، ولما أغلق الاتحاديون المجلس سنة ١٩٠٩ هجاهم فكرت بقصيدته [عودة إلى ٩٥] أي إلى عام ١٢٩٥ هـ الذي أغلق فيه العثمانيون مجلس المبعوثان . وقد أثارت هاتان القصيدتان جدالاً حاداً بين أنصار القديم والجديد ، ومع ذلك فإن محمد عاكف سكت ولم يحرك ساكناً ، وظل صامتاً حتى سنة ١٩١٢ حين هبَّ يحرض الناس ، في جوامع [بايزيد] و[فاتح] و[السليمانية] ويؤلبهم على توفيق فكرت ، باسم المقدسات والتقاليد والأعراف . ويحقُّ للإنسان أن يتساءل عن سِرّ هذا الانتظار والسكوت مدة سبعة أعوام ، فلا يجد إلا جواباً مقنعاً واحداً وهو تدخل القوى الخارجية ذات المصالح الخاصة . فقد كانت الأحداث تتصاعد بسرعة ، والحرب العالمية الأولى على الأبواب ، والدول الغربية تستعد بشوق شديد لتقسيم أملاك الرجل المريض والساحة التركية جاهزة للفتن والاضطرابات ، فلا عجب أن يتقدم محمد عاكف ليؤدي دوره في [قهر أعداء الاتحاد الاسلامي] متناسياً حاجة وطنه إلى إتحاد أبنائه ليكونوا يداً واحدة ضد العدوّ الخارجي المشترك . وقد أدّتْ سذاجته السياسية إلى إنجراره إلى المشاركة في اللعبة الخطرة الشائكة التي تدير خيوطها جميعاً الدول الاستعمارية التي لم يكن يهمّها إلا تحقيق هدف واحد هو ابتلاع أراضي المسلمين التي كانت تحت حكم العثمانيين في لقمة سائغة واحدة . وذلك لا يتمّ إلا بشرط إسقاط الدولة العثمانية ذاتها في حين ظنّ الشاعر المتحمس أنه هو ، أقوى المدافعين عنها ! وتلك هي التراجيديا التي يمثلّها أمثال محمد عاكف من بسطاء الشرقيين دائماً أبداً .

على أن محمد عاكف كان مختلفاً عن جميع زملائه المحافظين في مسألة واحدة ، هي أنهُ كان معصوب العينين بسبب حماسه الشديد في إيمانه بمعتقداته من صميم قلبه ، في حين كان بقية السلفيّين عالمين عارفين بما يفعلون ، فلا عجب أن يقفوا مترددين منتظرين ما تسفر عنه المعركة لينضموا إلى المنتصر والأقوى !

في اربعينات القرن العشرين شَبَّتْ نار الفتنة من جديد ، حين نشرت بعض الصحف التركية ذكريات الخصومة بين فكرت وعاكف ، وإذا بتطور يطرأ على الأحداث : فقد تعالت أصوات غريبة تطالب باسم الدين بإحراق مؤلفات توفيق فكرت . ولو شئنا تقصي أسباب اشتعال فتيل النار في ذلك الوقت ، لما صعب العثور على الجواب ، ففي تلك الآونة كان نجم النازية والفاشستية قد علا وارتفع في ألمانيا وإيطاليا ، وتحرك أنصارهما في كل مكان يرفعون رايتهما ، مؤلبين الشعوب بعضها ضدّ بعض ، من أجل إثارة الأحقاد والنعرات ، مشيعين الرعب والفزع في القلوب إزاء أشباح غامضة مجهولة قادمةٍ بلا ريب ! وكان للفاشستية يومئذٍ أنصار أقوياء في تركيا وكادوا ينجحون في مساعيهم لولا أن الأمور هناك اتخذت مسارات أخرى ليس هذا موضع التفصيل فيها .

خاتمة حياة

مضت الأعوام الأخيرات من حياة فكرت في معاناة أليمة من ضروب الأوجاع والأوصاب الجسدية والروحية . كان هذا الانسان المؤمن بالحضارة المتعطش إلى نور العلم ، شديد الخوف من الأطباء ، كارهاً للعلاج مع أن أمارات السلّ ظهرت عليه في

عهد الشباب الأول ثم أضيف اليه داء السكري . ومن المؤكد أن أمراضه وعلله تضاعفت بسبب المحن والكوارث التي تعرض لها وطنه في تلك الفترة كالمجاعة والحرب والوباء ، فضلاً عن تفشي الجهالة والتعصّب والفساد في كل أمور المجتمع ، مما يؤدّي بالإنسان الحسّاس إلى اليأس التامّ من إمكانية تحسُّن الأحوال . في بادىء أمره حاول فكرت اللجوء إلى الطبيعة التماساً للعلاج الشافي فأقام فترةً في جزيرة [هيبة لي] الجميلة في محافظة استانبول ، لكنّ صحته لم تتحسّن . يوضح الكاتب [علي أكرم] حالة صديقه فكرت في تلك الآونة بما يلي : ـ

حين بلغني نبأ مرضه توجّهتُ إلى « هيبة لي » حيث يُقيم فرأيته نحيلاً شاحب اللون ، مع أنني كنت قد شاهدته قبل ذلك بوقت قصير وكان في صحة حسنة . لكنه اليوم كان يمشي والإعياء بادٍ عليه . قلتُ له :

ـ يا عزيزي فكرت ما بك ؟ وما هذا التحول ؟

ـ ليس هناك شيء ، كل ما في الأمر انني أصبت ببرد ، ورقدتُ على السرير بضعة أيام . عندي الآن ألم حاد في اللِّثة ربما تسببَ عن البرد .

ـ ولماذا تربط يدك ؟

ـ ظهر فيها بثرة متقيحة .

ـ وماذا صنعت لها ؟

ـ لا شيء ، ضجرت من الدواء ويدي لا تُشفى .

ـ يا أخي ألا تعرض نفسك على طبيب ؟

ـ دعنا من الأطباء . إنهم لا يعرفون إلا قتل الناس !

ـ لا يا فكرت ! العناد لا جدوى منه ، وعلّتك ستزداد سوءاً بهذه الطريقة .

ـ تريد أن تقول بأنني سائر إلى القبر ! فليكن ، سأجد في ذلك الخلاص . ألا ترى أن العيش في هذا البلد يعني الموت في كل لحظة ؟

وسحبني عند هذا من يدي ، وسار بي إلى ضاحية « بيبيك » على البوسفور . وعند جلوسنا مضى يعدّد الكوارث التي يعاني منها الوطن : الإدارة الفاسدة ، اللصوصية ، الرشوة ، الوباء ، المجاعة ، سُلاطة الموظفين ، الخراب الشامل والدمار في كل موضع . كان يتحدث وكأنَّ فمه يلفظ جمرات النار ، ولم يكفّ عن الكلام ، بل استمر يقول ويقول مع أني حاولت توجيه الحديث إلى صحته لكن بلا جدوى . حين نهضت لأفارقه قال مودعاً : ـ

ـ سأموت ! ومن أجل الخلاص والراحة سأكون مسروراً بالموت ! نعم كانت فكرة الموت تلازم توفيق فكرت في آخر أيام حياته وراح ينتظره ، لأنه لم يعد يطيق مواصلة العيش في تلك الظروف السيئة . وتلك حقيقة لمسناها بأنفسنا نحن أصحابه] .

إن الرباعية التالية تلقي الضوء على نفسيته في تلك الأوقات : ـ

العذاب من إقامتي في هذه الأرض ، بلغ مداه !
ألا راحة من هذا الشقاء ؟
الجسد الناحل اللسان الأخرس ، الخيال الواهن
كل ما في العالم يؤدّي بنا إلى التعاسة . .

في ١٥ آب ١٩١٥ إنتقل فكرت من هذا العالم القاسي ، ولم يتجاوز الثامنة والأربعين من العمر . ودفنوهُ في مقبرة السلطان أيوب [أبو أيوب الانصاري المدفون في استانبول] . ولم يمشِ في جنازته إلا عدد ضئيل من الناس ، لكن الشوارع اكتظت بالمشيّعين حين نُقلتْ رفاته ، سنة ١٩٦١ إلى داره [آشيان] وبلغ عددهم الآلاف المؤلفة .

* * *

منزلة فكرت في الثقافة التركية

في حركة التوجه نحو الحضارة الغربية التي حققتها الطبقة الوسطى في تركيا بقيادة المثقفين ، عُدَّ توفيق فكرت زعيماً لحركة الأدب الجديد ، والممثل الأول لتيار « ثروة الفنون » الذي كان بمثابة الخطوة الحقيقية الأولى لهذه الحركة التجديدية . نجح توفيق فكرت في استخدام (العروض) أفضل استخدام في شعره دون أن يفسد إيقاعات الحرف التركي وأصواته المباينة لنظيراتها في العربية ، وهي معادلة فشل في تحقيقها الشعراء الاتراك القدامى . كذلك وُفق فكرت لِـ نقل أشد المعاني دقةً ، بأبسط الألفاظ المستعملة في لغة الكلام العادي . وبهذا استطاع أن يخلق لنفسه لغةً شعرية سليمة كسرت طوق « التقليد » الذي غرق فيه الشعراء الديوانيون من قبلُ . كذلك استطاع فكرت إدخال كثير من الأغراض والأساليب الشعرية التي لم يعرفها الشعر التركي قبلهُ ، ومع كل هذا فإن لغته الشعرية بقيت نقيةً رصينةً مؤثرة . نعم حاول

شناسي[١٠] قبل زمن فكرتْ تجديد الأدب التركي ، متأثراً بالأساليب الغربية أيضاً ، لكن التجديد الأكمل لم يقع إلا على يدي توفيق فكرت الذي تميّز عن بقية أدباء النهضة التركية بنزعته الإنسانية وعشقه للجديد ونفوره من الجمود والتعصب الأعمى وبلادة الجهل ، واستطاع تحويل حماسه العفويّ إلى تطلعات إنسانية نبيلة ، ونجح في أن يجعل من شعره صدى حيّاً لروح عصرنا الحديث .

آمن فكرت بفكرة الحرية ، حرية المجتمع ، وحرية الفرد ، ودعا إلى تحرير الإنسان الشرقي من قيود التقاليد السقيمة البالية التي تطحن الأفراد جيلاً بعد جيل دون أن يكون لها أية فائدة إلا للقوى المستغلة الطفيلية . كان مؤمناً بحقّ كل فرد ، مهما كانت منزلته الاجتماعية ، أو جنسه أو قوميته ، في إعتناق الآراء والأفكار التي يراها صائبةً ومناسبة لنفسه ولمجتمعه ، وكافح كفاحاً صعباً من أجل حفظ كرامة الإنسان في المجتمع الشرقي المحافظ الذي عاش فيه ، تحت سطوة الدولة العثمانية المتخلفة . هذه المفاهيم بدت غريبة تماماً عن معاصريه إذ لم يكن لهم أي عهد بها . وبهذا يُعدُّ فكرت المثقف التركي الأول الذي نادى بأعلى صوته ، مطالباً بمجتمع حُرّ قادر على تربية أشخاص أحرار . يقول الكاتب زكي باش تيمار BAS TIMAR [لا أظنُ أياً من شعراء النهضة التركية قد نجح في أن يترك من الأثر العميق في مشاعر المثقفين كالذي تركه توفيق فكرت ، وأحسن دليل على حيوية فكره أنّ القوى الشريرة التي كافح ضدَّها ما زالت حتى اليوم تبذل المساعي المحمومة ذاتها من أجل إيقاف عجلة الحياة ، وخنق أنفاس الحرية في كل مكان] .

تلقي الحادثة التالية التي يحكيها الأديب صالح كرامت نيغار ضوءاً ساطعاً على وطنية توفيق فكرت :

[قبل إعلان دستور ١٩٠٨ بأربعة أشهر طلبتُ من توفيق فكرت الإنضمام إلى جماعة الإتحاد والترقي فأجابني قائلاً : أنا أيضاً مثلكم أريد إسقاط الحكم الاستبدادي ، لكن علينا أولاً أن نكون شديدي الحذر ، إذ أخشى أنْ تنتقل السلطة ، بعد خلع عبد الحميد إلى أيدي حفنة أشخاص لا يهتمون بغير مطامعهم الخاصة الأنانية متناسين تماماً مصالح الشعب الذي تظاهروا بالغيرة على مصيره . يقول صالح كرامت مواصلاً حديثه : وفي ذلك الوقت أراد الاتحاديون من « فكرت » كتابة نشيد ثوري للشعب . ولما أوصلت هذا الطلب إلى فكرت ، جاءني بعد أسبوعين وبيده الأنشودة التالية :

إذا كان للظلم مدفع ودرع وحصن
فإنَّ للحقّ ذراعاً لا تنثني ووجهاً لا يتلفت
حتى لو أغمضنا أعيننا خشية وهج الشمس
حتى لو غرقنا في دياجير الظلمات
فلا بدَّ لليل من صبح !

* * *

طريقي الذي لزمتُه هو طريق الحرية
فالحياة والحرّية لك يا شعبي !

لعل أفضل خاتمة لحديثنا عن توفيق فكرت ، التحليل التالي الذي تقدِّمُه الكاتبة التركية صبيحة سرتيل لشخصية فكرت وأدبه :

[لو تفحّصنا آثار فكرت جميعها ، لتوصّلنا إلى أنه كان شاعراً إنسانياً وثورياً في الوقت ذاته . ذلك يعني عنده أنّ كل إنسان بحاجة إلى الحرّية التي هي حقٌ له منذ مجيئه إلى هذه الدنيا ، شأنه شأن أي كائن حيّ ، وأن العدالة يجب أن تسود المجتمع كله فلا يُسمح باستغلال القوي للضعيف ، بأي اسم جاء هذا الاستغلال ! على أن فكرت عجزَ عن معرفة الطريق الموصل إلى هذه الأهداف السامية . كلّ ما تصوره أن الحكم لو وُضعَ في أيدي أشراف الناس « أشرفهم أخلاقاً » لنتج عن ذلك اوتوماتيكياً تحقّق العدالة والحرية والإخاء بين البشر . واعتقد أنَّ خلاص الناس حاصلٌ بمجرد انتشار الثقافة بين مختلف الطبقات ، لأن ذكاء الإنسان سيوصلهُ حتماً إلى تلك النتيجة الباهرة . وخُيّل إليه أن التراب سيتحوّل إلى ذهب بمجرّد أن يمتلك الفلاح سلاح الثقافة . لقد آمن فكرت بنوع من الاشتراكية الطوبائية التي اطلع عليها في مؤلفات سان سيمون وفورييه وغيرهما ، في حين أنه كان بحاجة إلى اكتشاف تعقيدات الحياة السياسية والمشاكل الاقتصادية ، والتراث الاجتماعي الطويل الأمد ، وغير ذلك من الأمور التي تحدّد

---

[١٠] شناسي ١٨٢٦ - ١٨٧١ : هو مؤسس الصحيفتين الشهيرتين [ترجمان أحوال] و[تصوير أفكار] في استانبول . يُعد المجدد الأول للادب التركي عموماً ، فهو أول من ترجم الشعر الاوروبي إلى التركية ، وأول من كتب المقالة وأول من وجّه كتابته إلى الكتل الشعبية لا إلى الخواص ، وأول من أدخل علامات التنقيط في الكتابة التركية ، وأول من استعمل ألفاظ : « الشعب ، الوطن ، القومية » بمفهومها الحديث . وكان شناسي مؤمناً بمذهب [الفن من أجل الشعب] .

مسيرة المجتمعات ، وتقف في طريق تحقيق الأماني والأحلام . لقد تخيّل أنّ فساد الإدارة هو المسؤول الأول عن الخراب الشامل ، لذلك لم يقدِّم في آثاره إلا الحلول الفوقية السريعة التي ما كانت بقادرة على تحقيق المقاصد المرجوّة حتى لو تغيرت رئاسة السلطة . وبالفعل فقد خُلع السلطان عبد الحميد ، وتسلمت جماعة الاتحاد والترقي السلطة التنفيذية ، فكان عهدها أسوأ من عهد عبد الحميد وأقسى ، ولهذا اشتد أثر الصدمة في نفس توفيق فكرت ، ولم يعرف كيف يفكر بعدها . وفي غمرة يأسه ، التفت إلى الشباب مؤملاً عندهم الخلاص المنشود ، وهو بذلك أيضاً لا يعرف أنه ماض في أوهام الخيال ، مستغرق في أحلام المثالية . فلا عجب أن ينتهي إلى اليأس التام ، ولا يبقى له إلا الانزواء داخل داره (آشيان) مكتفياً بنفث آهاته وحسراته المعبرة عن عذابه النفسيّ في عهد تلاشي قواه الجسدية وانهيار مقاومته الروحية] .

في الواقع كان توفيق فكرت شاعراً ، وليس من مهمات الشاعر أنْ يكون أو يقوم بمهمة المصلح الاجتماعي ، وإنما وظيفته أن يبدع آثاره الفنية بآلته اللغوية ، وليس ذلك بالأمر السهل كما قد يبدو للعين الساذجة . فأثار الشاعر هي دم قلبه متقطراً في حروف الكلمة . وذلك أيضاً هو سلاحه وليس من سلاح يعادل سلاحه القويّ هذا ، لأنَّ حاملي السلاح الشجعان إذا كانوا بالآلاف في كل زمان ومكان ، فإن مبدعي الفنّ لن يتجاوزوا عدد الأصابع ، في الفترة ذاتها . وإذا كان في قدرة الأنبياء أن يدفعوا الناس إلى القيام بتغيير الأوضاع الراكدة ، فإنّ الشعراء بهذا المعنى أنبياء أيضاً ، لأنهم يلهمون النفوس أسمى الأهداف وأنبل المعاني ، ثم تستقر آثارهم في قلوب البشر ، وتصبح جزءاً منها . تلك هي مهمتهم .

بغداد